

نكل قوم تاج، وتاج هؤلاء القوم: الشبلي
« من كلام الجيد »

تاج الصوفية
أَبُو بَكْرٍ الشَّبْلِيُّ
حياته وآراؤه

الدكتور
عبد الحلیم محمود

الطبعة الثانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف
المرسلين وإمام المحبين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن
اتبع هديه إلى يوم الدين.

«ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا
رشداً».

«اللهم لك الحمد يا ضياء السموات والأرض، ويا
بهاء السموات والأرض، ويا قيوم السموات والأرض، ويا
نور السموات والأرض، بحق أسمائك عليك، وبحقك
عليك، فلا حق أجلك منك عليك، وبحق ما أنزلت، وبحق
من جعلت له شهيداً نبياً أنزلت. يا الله، ويا من لا سواك
الله».

صلِّ اللهم على محمد وعلى آل محمد».

[من دعاء الشبلي]

مقدمة

إن لكل صوفي طابعاً معيناً، ولكلامه مذاقاً خاصاً.

والصوفية - وإن كانوا جميعاً يسرون إلى هدف واحد، وغاية
لا مذاهب فيها، هي: التوحيد - فإنهم يختلفون في الشكل، ويتفاوتون في
الطريق. ومن هنا كانت الكلمة المأثورة:
التوحيد واحد. «والتوحيد هو الغاية».

والطريق إلى الله كنقوس بني آدم.. إنها تتعدد وتتفاوت..

وكثير من الصوفية ساروا في طريق الحب، وقد اشتهر منهم البعض في
هذا الطريق، والناس جميعاً يسمعون - في هذا المجال - عن السيدة رابعة
العدوية - قدس الله روحها - ولكنهم - في كثير منهم - لم يسمعوا عن
الإمام أبي بكر الشبلي.

والإمام أبو بكر الشبلي صورة جميلة لزاويتي هما من أهم زوايا
التصوف - إن لم يكونا أهمها:

أولاهما: حب الله تعالى، ولقد سار فيه الشبلي على طريق مستقيم: إنه
أحب الله إلى درجة الهيام، واستولى عليه الحب فكان له السلطان والسيطرة
في كل ما يقوم به «الشبلي» من عمل.

لقد هام «الشبلى» في رياض الحب، وأخذ يتحدث عنه تترًا وشعرًا، وشعره في هذا المجال جميل مؤثر. وما كان يكفى في التعبير عن عاطفته شعره هو، وإنما كان يستشهد بشعر الآخرين في مختلف المناسبات، وسيرى القارئ الكثير من هذا الشعر في أثناء الكتاب إن شاء الله تعالى. بيد أن هذا الهيام الذي كان يستولى أحيانًا على الشبلى فيملك عليه جميع أقطاره حتى لا يرى ولا يحس ولا يسمع إلا ماله صلة بحبويه، ولا يشعر بشيء إلا بما يعتل في صدره من حب الله تعالى...

هذا الهيام المستغرق كان من مظاهره حسن العبادة، وتحقق للشبلى عن طريق المحبة ما وصفه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من مظهر الإحسان بقوله حينئذ سئل: ما الإحسان؟ فأجاب:

«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»

كان الشبلى متعبداً كأحسن ما يكون العباد المحبون.

وسيرى القارئ شيئاً من تفصيل كل ذلك في الكتاب إن شاء الله تعالى.

أما الزاوية الثانية - في صورة الشبلى الجميلة - فإنها زاوية: التوحيد، والتوحيد هو المذهب، والتوحيد في حياة الشبلى كما يعتبر المذهب والغاية، فإنه بنظره أعمق في حياته - يعتبر أيضاً طريقاً، إنه حينئذ سئل عن التصوف قال:

«بدؤه معرفته، ونهايته توحيده!»

ولكن.. ما هذا البدء؟ إنه معرفة الله واحداً، ومعرفة ما يجب لهذا الواحد من فروض وواجبات، وما يستحيل عليه سبحانه، إنه معرفته منزهاً عن الشريك والتد والولد والصاحبة.

وإذا كانت النهاية «توحيد شهادة»: «أشهد أن لا إله إلا الله»، فإن البدء «توحيد معرفة بما يجب وما يجوز وما يستحيل، ومعرفة بما يجب أن يقوم به الإنسان من فروض، وما يجب أن ينتهي عنه من منتهيات.

إن البدء توحيد معرفة مكتسبة من إغلال كتب الدين، والنهاية توحيد شعور وحال وذوق: وكلاهما توحيد.

وعندما يصل الإنسان إلى توحيد الشعور والحال، فإن التوحيد والمحبة يترجان، فيكونان وحدة متكاملة هي: توحيد الحب، أوجب الواحد الأحد، وامتزج الحب والتوحيد في حياة الشبلى، فكان ذلك تاجاً على رأسه، وصدقت كلمة الإمام الجنيد:

لكل قوم تاج، وتاج هؤلاء القوم الشبلى!

ومن أجل ذلك: من أجل هذا التناسق الجميل بين الحب والتوحيد كتبنا عن الشبلى!

والله نرجو أن يهدي هذا الكتاب، وأن يهدي له، وأن يحيط السبيل
بشأيب رحمته، وأن يتفضل عليه بحبه.
إنه سميع قريب مجيب...

الفصل الأول

حياته

حياته

من الشخصيات من إذا نظرت إليه، أو قرأت له، جذبك منظره، أو جذبتك القراءة له إلى حبه.

والشبل من هذا النوع الذي يجعلك تحبه حتى ولو لم تتفق معه في بعض الآراء، والصنعة البارزة في الشبل التي تجعل كل من يقرأ له يحبه، ويعطف عليه هي صفة الحب عنده.

لقد ملك الحب عليه أقطار نفسه، وشغله عن كل شيء سوى محبوبه، لقد هام في رياض الحب، وتاه في بيداء الحب، وانغمس في بحار الحب، وبقي في اللجة إلى أن وافاه القدر المحتوم.

إن الحب مركز الدائرة في حياة الشبل منذ أن أحب، إنه طابعه ومظهره، إنه ظاهره وباطنه، والمحبة، كما يقول الشبل:

«صراط الأولياء».

أحب الشبل بكل أقطار نفسه، ولم تتسع نفسه لغير حب الله، وكان هذا الحب يلهمه عن الأكل والشرب، وقد صرفه عن الزينة والملبس الأنيق، ولم يكن في خياله ولا بين عينيه غير محبوبه.

ولكن هذا الحب سار في الطريق المستقيم:

لقد كان ثمرة الجهاد في العبادة لا يفتر. ثم كان ثمرة جهاداً في العبادة لا يفتر.

والجهاد في العبادة، من أقسامه، الجهاد في المجتمع ليستقيم، ليعبد ليحب.

ولقد جاهد الشبل - من أجل المحبة - في المجتمع يساراً، وجاهد بكلامه، وكان قدوة، وكان واعظاً، وكان مدرساً، من أجل هدف واحد هو: المحبة.

وإذا كان الجنيد قد وصفه بأنه: «تاج الصوفية» فإن هذا التاج إنما هو تاج الحب.

كيف وصل الشبل إلى ذلك؟

لنبدأ مع الشبل منذ البداية.

إن اسمه المشهور به هو: أبو بكر الشبل.

ولا نحب أن ندخل في تفاصيل الاختلاف في اسمه، ولكن نحب أن نذكر ما يقوله صاحب الوفيات في ضبط الاسم، إنه يقول:

... «الشبل - بكسر الشين، وسكون الباء الموحدة، وبعدها لام - نسبة إلى (شيلة)، وهي قرية من قرى (أسروشة) - بضم الهجمة، وسكون

ناحية من نواحي رستاق «الري» في الجبال، وبعضهم يقول: «دمارند»
والأول أصح.

ويقول صاحب الكواكب الدرية:

«هو خرسانى الأصل، بهمدى النشا، كان والياً بهماوند وبالبصرة،
وكان والده حاجب المحجائب للموفق».

ولعل التسيل تدرج في الوظائف من مديته إلى أخرى أكبر منها أو أهم
منها، وهذا طبيعي في المناصب.

وما كان التسيل في عزم من الأيام منصرفاً عن العلم، بعد أن تتفقد
الثقافة العامة، ولم تشغله الوظائف عن السمو بأفقه عن طريق العلم.
لقد درس، وتأثر، وسهر الليالي في طلب العلم، بل كان يحضر دروس

العلماء وهو في وظيفته.

يقول السلي عنه:

«كتب الحديث الكثير، ورواه».

ويقول عنه الإمام المناوى:

«تفقه على مذهب الإمام مالك، وكتب حديثاً كثيراً...».

ويقول صاحب الشذرات:

«... وكان التسيل فقهاً عالمًا كتب الحديث الكثير».

السين المهمل، وضم الراء وسكون الواو، وفتح الشين المعجمة، وفتح النون
وبعد ما جاء ساكنة وهي بلدة عظيمة رواء سمرقند من بلاد ما وراء النهر،
والتسيل إنن خرسانى الأصل. ولكنه ولد «بسم من رأى»، ونشأ في بيت
عز وجاه، فقد كان والده حاجب المحجائب للموفق، وكان خاله أمير الأمراء
بالاسكندرية.

وبيت كهذا حيناً ينشأ فيه ناشئ فإياه يعنى بثقافته عناية فائقة،
والأسس الأولى للثقافة إذ ذاك إنما هي اللغة العربية في صورة مستفيدة،
وهي علوم الشرح في كثير من المعاني، ثم ينظر الساب الطامع إلى المادة
التي يتخصص فيها: حديثاً، أو تفسيراً، أو فقهياً، أو غير ذلك.

ونشأ التسيل وصورة والده ماثلة بين عينيه، وهذا أمر طبيعي في كل ابن
له والد نابه.

وأخذ التسيل يتطلع إلى المجيد. واستشرفت آماه إلى الوظائف، وكان
الطريق أمامه مهيأ: فهو ابن موظف كبير في الدولة.

وكما يسر الله طريق الثقافة له، فإنه يسر له طريق الوظائف، ووصل
التسيل إلى أن كان حاجباً للموفق وهو ولي العهد، وكان التسيل أيضاً والياً
على: «دنياوند»... يقول صاحب الوفيات:

«... «دنياوند» - بضم الدال المهمل، وسكون النون وفتح الباء
الموحدة، وبعدها واو مفتوحة، ثم نون ساكنة، وبعدها دال مهمله - وهي

ويقول أحمد بن عطاء: سمعت الشبلي يقول:

«كتبته الحديث عشرين سنة»

وجالست الفقهاء عشرين سنة».

ولم تكن دراسته هينة، فقد أخذ نفسه بالعزائم، فحفظ «الموطأ» عن ظهر قلب، أما القرآن الكريم فإنه لم يكتف بحفظه بقراءة واحدة، وإنما درس أكثر من رواية.

وانتهى به الأمر إلى أن أصبح علماً من أعلام العلماء، وأصبح صاحب حلقة يدرس فيها ويعطى، ويهدى بقوله وسلوكه، واستحق أن يقول فيه أبو عبد الله الرازي:

«لم أر في الصوفية أعلم من الشبلي»

وكانت له مع العلماء جولات.

مسائل من علم الشبلي

إن الشبلي مر يوماً بأبي عمران وهو يدرس في حلقة، فلما رآه أبو عمران قام إليه وأجلسه بجانبه فأراد بعض أصحاب أبي عمران أن يرى الناس أن الشبلي جاهل - فقال له: يا أبا بكر:

إذا اشتبه على المرأة دم الحيض بدم الاستحاضة، كيف تصنع؟

فأجاب بشمانية عشر جواباً.

فقام أبو عمران وقبل رأسه وقال:

يا أبا بكر: أعرف منها اثني عشر، وستة ما سمعت بها قط.

ومن ذلك ما يقوله أبو القاسم عبد السلام بن محمد المخرمي، يقول: سمعت الشبلي.

- وسئل عن قول الله:

﴿ادعوني أستجب لكم﴾

قال:

«ادعوني بلا غفلة، أستجب لكم بلا مهلة».

وسئل عن قوله تعالى:

﴿قل، اللهم منن بغضوا من أبصارهم﴾

قال:

«أبصار الرؤوس عما حرم الله تعالى، وأبصار القلوب عما سوى الله».

وكان ابن بشار ينهى الناس عن الاجتماع بالشبلي، والاستماع لكلامه.

فجاءه ابن بشار يوماً بمتعته، فقال له ابن بشار: كم في خمس من الأهل؟

فَسَكَتَ الشَّيْلَى، فَأَكْثَرَ عَلَيْهِ ابْنُ بَشَارٍ، فَقَالَ لَهُ الشَّيْلَى:

فِي وَاجِبِ الشَّرْعِ شَاءٌ، وَفِيهَا يَلْزَمُ أَمْثَالُنَا كُلُّهَا.

فَقَالَ لَهُ ابْنُ بَشَارٍ:

هَلْ لَكَ فِي ذَلِكَ إِمَامٌ؟

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: مَنْ؟

قَالَ: أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَيْثُ أَخْرَجَ مَالَهُ كُلَّهُ، فَقَالَ لَهُ
«النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا خَلَيْتَ لِعِيَالِكَ؟»

قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ - فَرَجَعَ ابْنُ بَشَارٍ، وَلَمْ يَنْتَهِ بِعَدِّ ذَلِكَ أَحَدًا عَنِ
الاجْتِمَاعِ بِالشَّيْلَى.

وَيَقُولُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، سَمِعْتُ الشَّيْلَى يَقُولُ فِي قَوْلِ اللَّهِ:

﴿يُحِبُّ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾

قَالَ:

يُحِبُّ مَا يَشَاءُ مِنْ شُهُودِ الْعِبَادَةِ وَأَوْصَافِهَا، وَيُثَبِّتُ مَا يَشَاءُ مِنْ شَوَاهِدِ
الرُّبُوبِيَّةِ وَدَلَالَتِهَا.

وَسُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾

فَقَالَ:

كُلُّ مَا دُونَ اللَّهِ لَغْوٌ.

وَكَانَ يَقُولُ:

«حَقَّقْتُ الْأَسْرَارَ صَوْنَهَا عَنْ رُؤْيَةِ الْأَنْبِيَاءِ»

وَمَا يَرَوِي عَنْ أَبِي الْقَاسِمِ عَيْسَى بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَيْسَى الْوَزِيرِ يَقُولُ:

كَانَ ابْنُ مُجَاهِدٍ يَوْمًا عِنْدَ أَبِي - فَقِيلَ لَهُ: الشَّيْلَى.

فَقَالَ: يَدْخُلُ.

فَقَالَ ابْنُ مُجَاهِدٍ: سَأَسْأَلُكَ السَّاعَةَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَكَانَ مِنْ عَادَةِ الشَّيْلَى إِذَا
لَبِسَ شَيْئًا خَرَقَ فِيهِ مَوْضِعًا، فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ لَهُ ابْنُ مُجَاهِدٍ:

يَا أَبَا بَكْرٍ: أَيْنَ فِي الْعِلْمِ إِقْسَادٌ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ؟

فَقَالَ لَهُ الشَّيْلَى: أَيْنَ فِي الْعِلْمِ؟

﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾

قَالَ: فَسَكَتَ ابْنُ مُجَاهِدٍ.

فَقَالَ لَهُ أَبِي: أَرَدْتَ أَنْ تُسَكِّتَهُ فَاسْكُتْ!

ثم قال الشبلي له: قد أجمع الناس أنك مفرى الوقت. أين في القرآن الحبيب لا يعذب حبيبه؟

قال: فسكت ابن مجاهد

فقال له أبي: قل يا أبا بكر.

فقال: قوله تعالى:

﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾.

فقال ابن مجاهد: كأنني ماسمعتها قط.

أما موضوع إحداه خرق في الثياب فإنه يرتبط بمحاولة البعد عن العجب والفخر أو الخيلاء أو الكبر، وما كان خرق الثوب افساداً كلياً له، وإنما إفساد للفخر به، وإفساد للعجب به، وكانت الناس تعلم ذلك عن الشبلي، ويفسرونه التفسير المناسب، ما عدا هؤلاء الذين يكرهون الصالحين من عباد الله.

وسئل الشبلي عن: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾.

فقال:

«الرحمن لم يزل. والعرش محدث. والعرش بالرحمن استوى».

وسئل: ما الحكم في أنه تعالى ذم الاستهزاء والمكر، ثم فعلها؟ فقال:

ويصح من سواك الفعل عندي فتفعله فيحسن منك ذاك

فقال السائل: أسألك عن القرآن فتجيب بالشعر؟ فقال:

لم أجب به إلا لتعلم أن في أقل قليل أدل دليل: تغليته تعالى بينهم وبين الاستهزاء، والمكر مكر منه بهم، إذ لو شاع لمنع.

وسئل الشبلي: عن أرجى آية في القرآن؟ فقال:

﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يقفر لهم ما قد سلف﴾.

قال:

فإذا كان الله تعالى أطلق للكفار دخول الجنة بذكر (لا إله إلا الله) مرة واحدة، أترى من واظب عليها طول عمره، كيف يمنع من دخول الجنة وهو طاهر من نجاسة الشرك؟

وقال:

«من خرج عن ماله كله لله فإمامه أبوبكر، ومن خرج عن بعضه وأمسك بعضه فإمامه عمر، ومن أخذ وأعطى وجع لله فإمامه عثمان، ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه علي، وكل علم لا يؤدي إلى ترك الدنيا فليس بعلم».

وجاء رجل فقال: ياسيدي كثرت عيالي، وقلت حيلتي، فقال له:

دخل داراً فكل من رأته رزقه عندك فأفرجه، وكل من رأته رزقه
على الله فاتركه في الدار

ومن تقدير الشبلي للعلم أن كان يقول:

ليس الكامل من يوصل كل يوم ألفاً من العوام، بل من يوصل فقيهاً
واحداً في أعوام، وفي قصة موسى والخضر كفاية لكل معبر.

ومن طرائفه في الشرح أنه سئل عن قول النبي، صلى الله عليه وسلم:
«جعل رزقي تحت سيفي».

فقال: سيفه الله؛ أما ذو المقار فهو قطعة من حديد.

وما من شك في أن الرزق تحت إرادة الله تعالى، بقول سبحانه:
﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

ويقول:

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ، نُورِبُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ
بِشَيْءٍ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ﴾.

ويقول:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

وكان أحمد بن محمد بن مقسم يقول: حضرت أبا بكر الشبلي، وسئل
عن قوله تعالى:

﴿يَنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾.. فقال

«لمن كان الله قلبه» وأشد

ليس من قلب إليك معنى كل عضو من إليك قلوب
وتلا قوله تعالى:

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ، وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾.. إلى قوله

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يُوسِّدُ الْمُسْتَقَرُّ﴾، فلاحظوا مهم ما أشار إليهم. فقال
بعضهم: متى يصح ذا؟ قال:

«دا كانت الدنيا والآخرة حلماً. والله تعالى يعظه!»

وسد

دع الأقمار تغرب أو تنير لنا بدو تذل له البدور
لنا من نوره في كل وقت صباء ما تديره الدهور
أما عن الله تعالى، فإنه يقول:

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ مُوَحِّدٌ عِنْدَ النَّاطِرِينَ فِي صَنَعِهِ، مُفْقِدٌ عِنْدَ النَّاطِرِينَ فِي
ذَاتِهِ

قال أبو الحسن المالكي .

سألت من حضرموت النساج عن أمره، فقال:

« لا حضرة صلاة المغرب غشي عليه، ثم فزع عنه وأومأ إلى ناحية باب البيت، وقال: وقف عاذاك الله! إنما أنت عبد مأمور وأنا عبد مأمور، وما أمرت به لا يفوتك، وما أمرت به يفوتني، فذهني أمضي فم أمرت به، ثم امض لا أمرت به، فدعا بجاه فتوضأ وصلى، ثم تمدد وأغمض عينيه، وتشهد ومات.

وقد سمعه أبو بكر الرازي وهو يقول:

« من عرف من الدنيا قدرها وجد من الآخرة حقها، ومن جهل من الآخرة حقها قلته من الدنيا نزرها».

وقال:

« الصبر من أخلاق الرجال، ولرضا من أخلاق الكرام.

وقال:

من سبق بخطوة لا يدرك إذا كان صادقاً مجتهداً

وقال خير النساج:

الإخلاص هو الذي لا يقل عمل عامل إلا به.

أدركته العناية

استمر التسلي مندماً وراء العلم حديثاً وفيها.. ثم ثم ماذا؟

يقول الإمام الماوي:

عنه على مذهب الإسم حالك، وكسب حديثاً كثيراً.. ثم شغلته المعاشة عن الرواية

وكلمة الإمام المناوي:

« شغلته المعاشة عن الرواية».

ما قصته وذلك أن التسلي وهو في طريقه في الدنيا والجهنم والمتنصيص والعلو الكسبي، إذا به يحضر دروس ولي الله وخير النساج.

وقبل أن تسير مع التسلي، فإنه لابد من لمحة عابرة عن خير النساج، وقد كتبت عنه كتب الطبقات، وعنها نوجز مايلي:

كتبته أبو الحسن، كان أصله من سامراء وأقام يقعد - صاحب أبا حمزة البغدادي، وسأل السري السقطي عن مسائل، وكان إبراهيم الحلي أص تائب في مجلسه، وكذلك التسلي تائب في مجلسه - عمر طويلاً، وكان من أقران المورى وطبقته.

إن 'يُجْرَى' وراء المناصب، والمُعزَّز والخِلا، والمال والثر، والرِبة، في جميع وفي مكاتب . الاستسلام إلى اللذات والشهوات، والترعات، إن كل ذلك سماع الحياة الدنيا. والله سبحانه وتعالى يقول

هو زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والأغنياء، ذلك مناع الحياة من 'الذهب' والفضة والخليل 'السومة' والأغنياء والحرث، ذلك مناع الحياة الدنيا والله عنده حسن الآب.

وكان حديث 'خير الساج'، وقد تجرد إلى الله، واستلأ عليه بهجه، مؤثرًا عذبا.

وانتهى لشبل إلى نفسه في مرة، وزان الباطل كله في لحظات، وانتمى من أعماقه انتفاضة قدوت به مراحل في طريق الانتقاء، ومن الله عليه بهجة من حذائه.

وإن في ترائنا الروحي من هذا القليل بيان جميل لكثير من هؤلاء الذين اجتياهم الله سبحانه، فأخذهم عن أنفسهم إليه، أو - على حد تعبير الجليل - أمأهم عن أنفسهم وأجياهم به سبحانه. إن الله سبحانه وتعالى يقول

فوالله يحب من إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب.

وهؤلاء الذين اجتياهم الله لو لم تدركهم عنايته، سبحانه، لساووا في حياتهم عيشا لشهوانهم، ثم ماتوا في جو من مقت الله، ومن غشبه

مرث أعمالك ما يليق بأعمالك، فاطلب ميراث فضله، فإنه أتم وأحسن، قال الله تعالى

وقل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون وقال

الخوف سوط الله في الأرض، يؤتم به أنفسا قد تعودت سوء الأدب، ربي ما أساءت الجوارح الأدب، فهو من غلبة القلب وظلمة السر، [انظر طبقات السلمي، وطيمات الشعرا، بالكواكب الدرية].

حضر الشبل لموس هذا الرجل، وثنى به، وذلك أنه بهره بأمر آخرته، وأمر دنياه: إن الله سبحانه يقول.

فومن كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا. ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا. كُلا قد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا انظر كيف فضنا بعضهم على بعض، والآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا.

وما من شك في أن خير الساج من خير من يتحدثون عن هذا الموضوع، وهو من أمة من يتردد عنه بشهورهم ويسلوهم ويحدثهم

ولكنهم حينما أدركهم عنايته سبحانه أصبح لهم ذكر عطر على كل لسان: ذلك أنهم ألقوا بأنفسهم في رياض الطاعة عابدين متبهدين، صائمين قائمين.

وألقوا بأنفسهم في المحيط الاجتماعي، هادين مرشدين، دالين على الله سبحانه

وكان من علامة رضاه الله عنهم وجهه لهم، أن ألقى حبهم في قلوب الصالحين من عباده، وهدى على أيديهم الكثيرين ممن كانوا بعيدين عن حو التقوى، ودخلوا بذلك في إطار:

لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من الدنيا وما فيها.

ولأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من حمر النعم

ولم تقتصر هدايتهم للحيارى والعصاة والشاكرين والبائسين على وجودهم في الحياة، فإن آثارهم بعد انتقالهم إلى عالم الآخرة استمرت أنوارها هادية للحيارى، والعصاة، والشاكرين والبائسين.

وإن الله سبحانه من فضله ومن كرمه يقول:

﴿سنكتب ما قدموا وآثارهم﴾.

وأنار الصالحين ترفع إلى السماء فتسطر في سجل حسناتهم يوماً فيوماً، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ويعود إلى الشبلى وأستده

لقد أتر حير الساج تأيراً قويا على السبلى. فزلزل نفسه من جنودها، ودفعها دفقاً نحو الطريق إلى الله، فترع حب الرياسة من قلبه، وتهاوت حب الملدات من شعوره، واستشرقت نفسه إلى سعادة من نوع آخر.. لقد أخذ يتطلع إلى ما قاله إبراهيم بن أدهم:

«نحن في سعادة، لو علمها استوك لجالدونا عليها بالسيوف»

والشبه بين حياة الشبلى وحياة إبراهيم بن أدهم قوية، فقد كان كل منهما صاحب مركز مرموق، كان ثرياً واسع الثراء، كان ذا جاه عريض.. وفي لحظة من اللحظات - أصر ما يكون شاباً وفتوة - زاف الباطل، كل الباطل، من بين عينيه، واتجه في لحظة إلى الباقيات الصالحات، وأصبح - وما زال - مصدراً للهداية، واشعاعاً من النور ينير منازل السائرين

وإذا كانت توبة إبراهيم بن أدهم لم تسر على النسق العادى المألوف، وإعما كانت آية من الآيات الخارقة للعادة، فإن توبة الشبلى - وهى آية من آيات الله - سارت على النسق المألوف.

لقد تاب على يد خير الساج، وكانت توبته صادقة، وإذا صدق التوبة أثمرت مباشرة الاستقامة، دون زمن فاصل أو حدود مُعَرَّقة.

واستقام الشبلى في قلبه وروحه وشعوره وحوارحه، وما كان يتأق - بعد وصل إلى ذلك - بحرى وراء المظاهر؛ إنه يريد أن ينزعخ للدعوة

و في نفسه حي سركي وفي مجتمعه حي مستقيم

ومن أجل هذه العناية السليمة هاد بأمري

١ - أما الأمر الأول فهو أنه رجع إلى البلدة التي كان والياً عليها
وقال لأهلها

أنا كنت صاحب الموفق، وكان ولائي ببلدكم هذه، فاحبلوني في حل،
محلوه في حل، ونكهم اعتقدوا - فيما يبدو - أن الموفق أصبح غاصباً
عليه، فما كان يثأق - في نظرهم - أن يترك أحد الولاية باختياره، وأحبوا
أن يكافئوه بشيء، فجمعوا له مالا وهدايا؛

«وجهودوا أن يقبل منهم شيئاً، فأبى»

وذهب الإمارة، وذهب معها كل ما يحيط بها، وما يكمن فيها من
مغاسد وسينات، وتحلل الشبلي - بذلك - مما كان ينوء به من مظاهر
الند

٢ - أما الأمر الثاني، فهو ما يعده عنه صاحب الوفيات وغيره بقوله

«ومجاهداته في أول أمره فوق الحد»

وعبر حاله أسبلي رُش على حسب أحد معبري في الاصدعاء، من
أصدقاؤه من حاشية الموفق، ومن الأثرياء وأصحاب الجاه، ولكنه بعد
توبة

«صاحب الشيخ أبا القاسم الجنيد ومن في عصره من الصالحاء، ومن في

سنة حسنة

كان الجنيد - إذ ذك - مركز الجذبية للصوفية؛ كان مترناً كامل
لاترن، وكان متعبداً على علم، وكان عالماً كاهل وأعمق ما يكون بعد

كنت الكتب يحضرون محله لآلغاطه^(١).

والفقهاء لعريه

وسلاسة لدقة نظره ومعاينه.

وشكسبون لتحقيقه

والصوفية لإشاراته وحقائقه

أرأيت كيف يكون العلم النافع إشعاعاً نورانياً لمختلف المثقفين في
لشعب؟ على أن هؤلاء الذين كانوا يحضرون دروس الجنيد لم يكونوا طلبة
بالمعنى العادي للكلمة، وإنما كانوا علماء وأساتذة في فروع العلم المختلفة.

ولا ريب في أن الدين كانت تحذبهم أنوار الحسيد بصورة أشد إنما كانوا
من أصحاب المواجيد والأذوق؛ أي من الصوفية، وكان الجنيد إماماً لهم.
«مرسيداً، واحداً بأيديهم إن قصروا، ومهدداً لهم إن زادهم الوله؛ لقد كان

(١) والكتب هنا هم اللعويون ولادياه الذين يعدون أنفسهم للكتابة، أو الذين يعملون
بها - عمل، وكاتب وظائهم عدة الكتابة في قصور الأمراء.

دنداً يفرح بالبابة من جده، ويشد أزر من تعثر به الطريق، ويرد حاج
حاجب، والكل يدين له بالفصل ويعترف له بالتقدير

وارتبط الشبل بالجنيد، وما كان يهدأ الشبل إذا أتاه الوارد حتى يذهب
عن الجنيد ويتحدث إليه ويسمع منه.

وحسباً مأثبه الوارد ويأخذ في البحث عن الجنيد لا يرى الأشخاص
لآخرين، ولا يعرفهم، وإن كان قد التقى بهم أكثر من مرة، إن صور
جنيد تسيطر على فكره، بل وعلى بصره، حتى لا يكون فيها غيره

ذهب مرة يبحث عن الجنيد، وسار سارها وهناك ودخل المسجد، ومر
بناس كثيرين، وكأنه لم ير منهم أحداً، ولذلك لم يسلم على أحد، ثم ذهب
عن بيت الجنيد، فوقف بين يديه، وصفق يديه، وأنشأ

عودوني الوصال والوصل عذب ورموني بالصد والصد صعب
عمو حين أرمعوا ن ذنبي فرط حبي لهم وما ذك ذنب
لا وحن الخصوص عند التلاقي ما جزى من محب إلا محب

فحبه الجنيد

وممب ن أرا ك فلما رأستك
عيب دهم السرور فلم أملك اليك

وأحب الجنيد أن يخفف مرة عن الشبل فقال له مذاعباً

لو رددت أمرك إلى الله استرحت.

قال: لا، بل لو رد الله أمري إليه لاسترحت.

فقال الجنيد: سيوف لشبل تقطر دماء.

ودحر على الجنيد يوماً، فقال له الجنيد مذاعباً أيضاً:

من كان الله همه طال حزنه.

فقال الشبل: لا، من كان الله همه زن حزنه.

وكان الجنيد والشبل كلاهما يجبان السماع، ولم في ذلك طرائف:
أما الشبل فإنه صاح يوماً في السماع، فقبل له فيه، فقال
لو يسمعون كما سمعت كلامها خروا لعزة ركنها وسجوداً^(١)

وأب عن الجنيد فإن لشبل يقول:

وكان أكثر اقتراح الجنيد على القوالين هذه الأبيات:

فلو أن لي في كل يوم ليلة شاس بهراً من دموع تدعى
لأقيتها ثم ابتدأت بغيرها وهذا قليل للفتى حين يعشق
أهم به حتى الممات لشقوتي وحولي من الحب المرح حدي

(١) ويروي صاحب النجوم الزاهرة أن للشبل حديثين إليهم
عن المود عاشقنا إلى الأحياء يدعى
كنا حبشاً كننا وكاسوا حبشاً كننا

وقد عني سحاب قطر سبور. هو. يعني سور. يهدى سدي

ومن سدير حديد يسمى شدة كنه معزة

يقول أبو بكر محمد بن محمد بن سعيد بن سعيد بن محمد - وافي
يؤمنا سبي السبي يقول

حرام سمعت يا أبو بكر. سمعت جدي عن جدي عن جدي عن الله
وأنت عرق في الله

وأحب الجيد أن يبين للناس قدر الشبل. و. بصرفهم عن بعده في
جبه الجامع. وعن ذلك يقول أبو جعفر حردى. سمعت الخليل يقول:
« لا تنظروا إلى أبي بكر الشبل بالعين التي سطر بها بعضكم إلى بعض،
فإنه عين من عيون الله تعالى »

وهذه الكلمة للجنييد تسلمنا. إلى الحديث عن نظرة الكندي إلى
لتصوف: طريقاً وغاية

الفصل الثاني

الشبل وتعريف التصوف

التصوف

كان أول ما وجه انتباهي إلى البحث عن الشبلى، ما قرأته عنه منذ
رسم بعيد، وقد سئل.

لم سميت الصوفية بهذا الاسم؟ فأجاب:

إنما سميت الصوفية صوفية لبقية بقيت عليهم من نفوسهم، ولولاها
ما تعلقتم بهم تسمية.

ويريد الشبلى أن يقول: إن الانحياز إلى الله والقرب منه سبحانه -
وهذا هو التصوف - يقتضى أن يتجرد الإنسان من التزغات والشهوات
والفسس الأمارة بالسوء، وأن تذيب شخصيته في جو الأخلاق الربانية،
وتتضح إرادته في إرادة الله، وأن يكون هواء تبعاً للشريعة. يقول رسول الله،
صلى الله عليه وسلم:

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواء تبعاً لما حنت به»

وما من شك في أنه لا يؤمن الإنسان حتى يكون الله ورسوله أحب إليه
من سواهما.

ولقد قال سيدنا عمر مرة لرسول الله، صلى الله عليه وسلم:

والله لأنت يا رسول الله أحب إليّ من كل شيء إلا نفسي، فقال
لا - والذى نفسي بيده - حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال عمر
فأنت الآن والله أحب إليّ من نفسي، فقال: الآن يا عمر،
(رواه البخاري)

وقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم

لأن يا عمر.

أى أن الأمر الآن قد استقام، وبلغ الإيمان غايته

وكل هذا معناه أن الإنسان المتمسك بفرديته الشخصية وبشريته،
لا يكون سائرًا في جو القرب من الله سبحانه، ولقد قال الحسد مرة في
تعريف تصوف

أن يميتك الحق عنك، ويحييك به.

أى يميتك الحق عن أن تنظر إلى أعمالك، وعن أن تتحرك بصفاتك،
وتسير على هواك، ويحييك بالنخلق بالأخلاق الربانية

وهذا أيضاً هو معنى الاصطلاح الصوفي «الفناء والبقاء»: ومعناه الفناء
عن ما هو مذموم، والبقاء بكل ما هو محمود، أو - بتعبير أدق - الفناء
عن البشرية.

أى نسيان الإنية، والبقاء بالربانية. يقول الإمام القشيري:

وإن: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ تعبير صادق عن التوحيد

«ومما المعنى ورد في كثير من آيات القرآن، منها قوله تعالى: ﴿فاعبد وتوكل عليه﴾. وهذه الكلمة انقرآنية قد قدم الله سبحانه وتعالى لها بما يحترق أساساً، مبرراً، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ولله غيب السماوات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله فاعبد وتوكل عليه. وما ريك يعامل عما تعملون﴾

والله، سبحانه وتعالى، يخاطب رسوله، صلى الله عليه وسلم، قائلاً له: ﴿قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا﴾.. ويقول سبحانه ﴿رب المشرق والمغرب، لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾

وما من شك في أن الآية الكريمة: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، تعنى غاية واضحة وجوب، خلاص العبادة لله وحده، وجوب قصر الاستعانة على الله وحده، وانقرآري بوضوح، بما لا مزيد عليه. أن الله سبحانه وتعالى، هو وحده المتصرف في الكون، إنه المتصرف في اليسير من أمر الكون وفي العظيم منه.

﴿قل اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾

وهو سبحانه، كما يملك السموات والأرض، وكما يملكها أن تزولا، ولئن رلنا إن أمسكها من أحد من عبده فإنه يملك كل جنة من جنتياته العالم

إنه يملك البصر في العيون، ويملك السمع في الأذن، كما يملك العيب والادب، ويملك الصحة في

جسم الصحيح، ويملك استمرار الجاه عند قوى الجاه، ولو شاء سبحانه لأزال ذلك كله، ومنع استمراره. إن قوله تعالى: ﴿وليه يرجع الأمر كله﴾، عام شامل، ومن أجل ذلك فإن العبادة يجب أن تكون حاصلة له، وأن الاستعانة يجب أن تنحصر له.

ولقد رسم سبحانه الوسيلة الصحيحة للاستعانة المثمرة به، إنها إخلاص العبادة له من أحب أن يكون الله سبحانه وتعالى معه بالتوفيق والتيسير ولعون، من أحب أن يستجيب الله له فيخلق المبرورة به سبحانه. فإياك عبد وسيلة لتحقيق ﴿وإياك نستعين﴾ وفي حديثه:

والتوحيد نهاية الصوف، يقول الشبلي في تعريف التصوف

«بلؤه معرفه الله، ونهايته توحيده».

فإذا ما وصل الإنسان إلى التوحيد الصادق، فقد تحل عن جميع أهوائه ونزعاته ونزعاته وفرديته وإنيته، وجميع صفات التحديد فيه، ودخل بذلك في ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

ولم نصبح له نية لدنيا بصيها، أو امرأة يتزوجها، وإنما نصبح هجرته إلى الله، ورسوله خالصة صافية صادقة، يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيها رواه الإمام البخاري:

«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ ما نوى، فمن كانت هجرته

«فدسى رواه الإمام البخاري نوصح لذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيها رواه عن ربه ومن عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى من أداء ما امرته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعادني لأعيدنه». هذه الحديث الشريف بين في وضوح أن أحب شيء يقرب به الإنسان إلى الله، إنما هو أداء ما فرض الله عليه، وأن الإكثار من النوافل، مع أداء الفرائض وسيلة إلى حب الله سبحانه وتعالى لعبده وإذا أحب الله إنساناً كان معه بالتوفيق والهداية والتيسير، واستجاب له إذا سأل، وأعاده إذا استعاد. وبعد، فإن ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ هي تعميم تلاعب الصحيح والتوفيق الصادقة، أي أنها لصورة الواقعية لأولياء الله سبحانه، والله تعالى يقول:

﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكاثروا يتقون، لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا تبدل لكليات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾.

و من رسول، فمحرفته إلى الله ورسوله، ومن كانت محرفته مدياً بصيها
إمراد يكحها، فمحرفته إلى ما «محرف إليه»

والشئ حسبما يقول في تعريف الصوف الذي «وهدية»
نوحيدة»

إنما يتحدث عن درجة الوصول، أي الدرجة التي يطلق فيها على
الإنسان أنه «صوفي»، وهي الثمرة السامية لتركبة النفس التي يقول الله
سبحانه عنها:

﴿قد أفلح من زكّاه﴾.

وهذه الثمرة لها طرق عدة، ومن هنا يقول سادتنا، رصوا الله عنهم،
«التوحيد واحد، والطرق إلى الله كنوس بي آدم»

إن الناس يتفاوت استعدادهم، ويسهل على بعضهم ما لا يسهل على
الآخرين، ولعل ذلك يفسر جزءاً من الحكمة في اختلاف أنواع العبادات
من ذكر وصلاة وصيام... وفتح باب التواقل في ذلك طويلاً عريضاً مع
تحديد حد حتمي من العروض، وفي باب التواقل - في أي منها - متسع
بلاحتناء، وكل منها - بتوفيق الله - يقود إلى التعرض لسفحات الله، وفي
الآثر:

«ألا إن لربكم في أيام دهركم سمحات، ألا فتعرضوا لها»

وما من شك في أن الرب في اقرب هو نص الله تعالى ورحمته:
﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته لم يكن من أحد أهدأ﴾.
«مصدر» دن - وسائل الوصول إلى تركبة النفس، وتعددت طرق
«نحو» ن للتوحيد المصدق:

توحيد: أشهد أن لا إله إلا الله.

توحيد: المشاهدة.

نوحيدة. «أشهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً
بالنسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم»

ولكنها مهما تعددت، فإنها تعود دائماً إلى التوحيد: إن التوحيد نهايتها
وينتهيون الأمر بالدائرة ومركزها

إن الطرق هي المخطوط التي تبدأ من محيط الدائرة لتنتهي بالمركز، وهي
إذا تباعدت قليلاً أو كثيراً في المبدأ، فإنها تقترب من بعضها كلما اقتربت
من المركز، فإذا وصلت إلى المركز تحدث والمركز هو التوحيد.

ولكن الشئ لم يعرف لتصوف بتعريف واحد، وإذا كان التعريف
اندي ذكرناه هو أكملها وأتمها، فإن له تعريفات أخرى توضح وتفسر في
رأوية الطريق على الخصوص، وهي، في صورة أدق، نوضح الطريق من
الحاسب الأخلاقي على الأحص ومن ذلك ما رواه أبو الحسن على بن

المتى العنبري، قال: سألت أبا بكر الشبل جندري عن دلف عن النصف
فقار.

«النصف ترويح القلوب بمراوح الصفاء وتجليل الخوطر بأردية
الوفاء والتخلق بالسخاء والبشر في اللقاء».

وهذه كلمات في الجباب الأخلاقي، أى في جزء من أجزاء الطريق، وهى
كلمات مأخوذة من الأحاديث النبوية الشريفة، ومتناسقة مع القرآن
الكريم، وبما يتناسب معها من القرآن والسنة - وهى لا شك مأخوذة منها
- ما بين.

«أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه قيل
للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين».

«ألا بذكر الله تطمئن القلوب».

«ومن يؤمن بالله يهد قلبه».

«وأوفوا بعهدهم الله إذا عاهدتم».

«من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى
نحوه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً».

«وأنفقوا من مال الله الذى آتاكم».

«آمنا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه».

«محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم»

«إنما المؤمنون إخوة».

أما لأحاديث فمنها قوله، صلى الله عليه وسلم، فيها رواه النعمان
ابن بشير، رضى الله عنه:

«الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشبهات لا يعلمهن كثير من
الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في
الشبهات وقع في الحرام كالراعى يرعى حول الحمى، يوشك أن يواقعها،
ألا وإن لكم منكم حمى، ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الحسد
مصعة، إذا صلحت صلح الحسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى
القلب»^(١).

وفى أخرجه ابن أبى حاتم بسنده، عن عبيد الله بن مسعود، قال:

«تلا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، هذه الآية:

«فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام» قالوا يارسول الله:

ما هذا الشرح؟ قال:

«نور يقذف به في القلب، قالوا: يا رسول الله، فهل لذلك من أمانة

تعرف؟

(١) معنى عليه

قال: نعم. قالوا: وما هي؟ قال:

«الإيمان به إلى دار الخلود، والتحاقه عن دار العرور، والاستعداد للموت».

وعن جابر - رفعه - سئل رسول الله، صلى الله عليه وسلم: أي الإسلام أفضل؟

قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده».

قال: فأى الإيمان أفضل؟

قال: النصر والسماعة^(١).

قال: فأى المؤمنين أكثر إيماناً؟

قال: «أحسنهم خلقاً».

قال: فأى الجهاد أفضل؟

قال: «من عقر حماله وأهريق دمه».

قال: فأى الصلاة أفضل؟

قال: «طول الصواب».

(١) وفي رواية جابر - سئل رسول الله، صلى الله عليه وسلم: ما من الإيمان؟ قال: «لصحة سماعة» - رواه عنه جابر - وأخرجه في صحيحه.

قال: فأى الصلوة أفضل؟

قال: «جهه من

قيل: فأى الفحرة أفضل؟

قال: «أن تبحر ما حرم الله عليك»^(٢).

وعن أبي هريرة - رفعه - قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

«يكنم لن تسعوا الناس بأموالكم، فليسمعهم منكم بسط الوجه وحسن الخس»^(٣).

وعن مطرف بن عبيد الله بن الشحير، قال:

«سئل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ربح فقال: أرى الإيمان أفضل؟

قال: «لخلق الحسن».

فأعاد عليه فقال: «الخلق الحسن».

فأعاد عليه الثالثة والرابعة، فأما أهامه وإما أفعده، قال:

«أل تلقى أحاك وأنت طسق» ثم بارأى رسول الله، صلى الله عليه وسلم،

بجس الخلق الحسن، ويقول: «هو من الله».

خرجه عنه مسلم - أخرجه عنه

(٢) أخرجه عنه مسلم - أخرجه عنه

ويصح الخلق السوء ويقول: هو من الشيطان» ثم قال:
«ألا تنظرون إلى حمرة عينه، وانتفاخ أوداجه؟»^(١)

ومن تعاريف الشبلى في هذا الجانب ما يقوله:
التصوف: التألف والتعاطف.

وهو تعريف مأخوذ - أيضاً - من القرآن والسنة، ومثل مصدره
ما يقوله الله سبحانه:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.
وقوله:

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.
وقوله:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.
وقول الرسول، صلى الله عليه وسلم:

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً». ويقول:

«نرى المؤمنين في توادهم وتراحهم كالحسف إذا اشتكى عضو تداعى
له سائر الأعضاء بالسهر والحمى».

(١) رواه المارث مرسلًا.

وإذا تحبها إلى الأخلاق في ناحيتها الروحية الدفيقة التي تصل
بالحاسة والمرافقة، فإن لشبلى يعرف التصوف بما يل
«التصوف ضبط حواسك، ومراعاة أنفاسك».

ومصدر هذا التعريف:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفْصُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى
لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْعُونَ، وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ
وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا، وَلْيَضْرِبْنَ
بِخُمُرِهِنَّ عَلَى رُءُوسِهِنَّ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ، أَوْ آبَائِهِنَّ
أَوْ بَنَاتِهِنَّ، أَوْ إِخْوَانِهِنَّ، أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ،
أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى
الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ،
وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ، وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا
أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾.

ويعرف الشبلى التصوف بتعريف هو وصف لحال الصوفي، يشرحه في
بعض أحاديثه: «التصوف: لا حال بقل، ولا سناء يظل».

ومعناه أن الصوفي لا يثبت على حاله، وذلك أنه في ترقى باستمرار، فإذا
ثبت على حال فقد وقف وأصبح كالماء الآسن لأنه لا يجري، يقول
العشيري في رسالته:

والحال عند انغمس معنى يرد على القلب من غير تعمد منه ولا احتلاب
ولا اكتساب لهم من طرب أو حزن أو يسط أو قبض أو شوق أو ارتجاف
أو هبة أو احتياج

وقالوا: الأحوال كسمها، يعني أنها كما تحل بالقلب، تزول في الوقت

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق رحمه الله، يقول في معنى قوله، صلى الله
عليه وسلم: «إنه ليغان على قلبي حتى أستمع الله تعالى في اليوم سبعين
مرة». إنه كان، صلى الله عليه وسلم، أبداً في الترقى، من أحواله، فإذا
رَفَع من حالة إلى حالة أُعْلِي عما كان فيها، فرد حصل له ملاحظته في
ما ارتقى عنها، فكان يعدّها «غيباً» بالإصافة إلى ما حصل فيها، وقد كان
أخبره في التزائد.

ومددورات المعنى سبحانه من الألفاظ لا نهاية لها،

وهو لا يسكن إلى ما تتروح به النفوس في هذا العالم، وهذا معنى
«لا ساء بطل».

والمعنى: أنه باستمرار في جهاد متصّل، وفي سعي للقرب من الله
سبحانه، لا يقف في جهده، ولا يسكن إلى الراحة، يقول السهروردي.

وأقوال المشايخ في ماهية التصوف تريد على ألف، وطول نقلها

ويذكر صابغاً يجمع حل معانيها، فرب الألفاظ - وإن احتفت -

مصدرة المعاني، عقول:

«تصوف هو من يكون قلبه مضمناً لا يرسى على
سوى لاكنه سبب سبب سبب»

وبمعنى على هذه الحقيقة روحه متقاربه إلى مولاه، فيدوام الافتقار يبقى
من كبر ونها، بحرب نفس وصهرت بصفة من صفات، أدركها بصيرته
النافذة، وفر منها إلى ربه، فيدوام خضوعه جميعه، وتحركه نفسه بفرقة
وكدره، فهو دائم بره على ربه، وعنه سببه على نفسه على الله تعالى
«يكونون قوامين لله شهداء بالنفس».

وهذه القوامية لله على نفس هي التحقق بالتصوف، قال بعضهم
«التصوف كله اضطراب، فإذا وقع السكون فلا تصوف».

ولسوفه من روح محدود في خصره إلهية يعني أن روح لهوفي
مضطربة محدودة في موضع ثوب، يستل بوضعها رسوب إلى عتيد
والغلاب على عتيد

ولا بد للتصوفي من دوم الحركة بدوام الافتقار ودوام العراة وحس
الفقد لموقع إصابات النفس

ومن وصف على هذا المعنى محد في معنى «لصوف» جميع المفرق في
«الإشارات».

ويعود مقول: إن تعرف السبيل للتصوف بأنه

«بذوه معرفه الله وهايته توحيد»

هو التعريف الأكمل، وبقية التعريفات توضيح وتفسير

ولكن التعريف الكامل للتصوف هو حياة الشبلى نفسها إياه تعريف
واقعى واضح للتصوف

ومع ذلك فإنه ينبغي - وقد عرفنا التصوف عند الشبلى - أن نبدأ -
معه فى رسم الطريق

الفصل الثالث

الطريق الصوفى عند الشبلى

إن التوبة تنشر الاستقامة إذا صدقت، وتأمل التعبير القرآني الكريم
حيثما يخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله، فيقول له:

هوذا مستقيم كما أمرت ومن تاب معك ﴿١٠٠﴾

لقد أمر الله تعالى بالاستقامة وأمر الثانيين بها، فإذا لم تنشر التوبة
الاستقامة، فلا توبة، والاستقامة التزام لاخر في التشريع ولاحلاق، ونظام
لجميع، واجساب الله في كل ذلك

والاستقامة، التي هي ثمرة التوبة النصح، تنقص الإخلاص، ولي
يكون توبه إذا لم يتوابع الإخلاص، ولن يقبل الله العمل إذا لم يتوابع
الإخلاص، وهو سبحانه القائل:

هو ألا الله الدين الخالص ﴿١٠١﴾

فكل ما ليس بخالص لا يكون لله فيه نصيب.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له، وقام الصلاة،
وأتى الزكاة، فارقها والله عنه راض.

رأى. ألى معاذ رضى الله عنه، وهو مسافر إلى اليمن، رسول الله صلى
الله عليه وسلم، المصيبة، فقال له:

اخْلِصْ دينك يكملك العمل القليل.

الطريق الصوفي عند السبيل

التوبة:

وأول الخطوات في طريق الصوفية، إنما هي التوبة الصادقة، والتوبة
الصادقة تركيز على شرطين أساسيين:

أولها : الانفصال التام عن الماهي في الحاضر.

وثانيهما: العزم المؤكد على أن لا يأتى الإنسان لندب في المستقبل، ثم
هى تحلف بعد ذلك بالسنة للناس، بحسب مواقفهم، وذلك أن من توبة
المدرس مثلاً أن يكون مخلصاً في تدريسه، وكذلك الموطف يكون أميناً في
علمه، وتوبة الماكن أن يسير في حكمه بحسب الشريعة، فإذا حكم
بدون ذلك لا يكون تائباً - وتوبة من يهدم - إقامة لحدوده، إنما هى في أن
يأمر بإقامة الحدود وإلا لا تقبل توبته.

وكيف يتأتى أن يتوب مشرح، مثلاً، وهو يشرح بفكر ما أنزل الله،
وكيف يتأتى أن يتوب قاض، وهو يحكم بفكر ما أنزل الله؟
وكيف يتأتى أن يتوب وال وهو - مع أن أمر ولايته يهدم - يسير بها في
سحر من ثوابين الغريب أو الشرقي؟

والإخلاص جوهره إخلاص النية قبل العمل، وفي أثناء العمل، وبعد العمل، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها وامرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

وتوبة الصوفي لها - مع كل هذه القواعد، في مجرى العادة: الوضع الطبيعي عند الصوفية، وهو: أن تكون على يد شيخ.

وهي بذلك تأخذ أبعاد البيعة، فهي توبة، وهي بيعة، أو هي توبة متضمنة في البيعة!

وأول بنود البيعة هو:

«ألا تشرك بالله شيئاً».

ويهتم الصوفية اهتماماً كبيراً بهذا البند ويتعمقون به تعمقاً لا يشارهم فيه غيرهم، ومن ذلك مثلاً ما يفعله الشبلي:

«الأسراراً الأسراراً صونوها عن الأغيار» اهـ.

إن القلب بيت الله، وإذا كان لله بيوت في الأرض هي المساجد، فإن لله بيوتاً في بني الإنسان هي: قلوبهم؟

ويحرص الصوفية أن تكون بيوت الله فيهم، لا يسكنها إلا هو سبحانه.

ومن أجل ذلك يحاولون - ابتداء من لحظة البيعة - أن يعلّوا قلوبهم!

قال الشبلي مرة، وقد أخذه وجد شديد:

«ما أحد يعرف الله».

قيل: وكيف؟

قال:

«لو عرفوه لما اشتغلوا بسواه!»

والإنسان يمكنه القيام بعمله العادي، وبالجهد في سبيل الله، وهو في كل ذلك مع الله، وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، ماضياً في الحياة: جهاداً وتربية للصحابة، وعناية بكل صغيرة وكبيرة من أمر الدعوة، وهو مع كل ذلك مع الله، إن الصوفي يعمل في سبيل الله، ولكنه في عمله لا يلاحظ نفسه، يقول أبو بكر محمد بن عبد الله الرازي: سمعت أبا بكر الشبلي يقول:

«ما أحوج الناس إلى سكرة».

فقل: أي سكرة؟ فقال:

«سكرة تغنيهم عن ملاحظة أنفسهم، وأفعالهم وأحوالهم، والأكوان

وما فيها»

وكان يقول.

«ليس يحظر الكون ببال، وكيف يحظر الكون ببال من عرف المَكُون؟»

أما أهل البلاء - فيما يرى الشبل - فإنهم: «أهل الغفلة عن الله؟»

لقد سئل، رضى الله عنه، عن حديث:

إذا رأيتم أهل البلاء فاسألوا ربكم العافية؟ فقال:

«هم أهل الغفلة عن الله تعالى؟»

ويقول الشبل:

«مساكين هؤلاء الممالك: نظروا بصيوتهم إلى الملكوت المحلوق، ورضوا بالجنان المحلوق، فبقوا معها خالدين فيها، وأما الملوك فلم يرضوا بها، فظفروا بقلوبهم إلى ممالك الملوك. فبقوا معه في مقعد صدق عند مليك معبر».

وسأله رجل عن مقام «التوبة» قائلا:

«يطرق سمعى من كتاب الله ما يجدونى على ترك الأشياء، ولا أعراض عن الدنيا، ثم أرد إلى نفسى وإلى أحوالى، وإلى الناس، ثم لأبى على هذا، ولا على هذا، وأرجع إلى الوطن الأول مما كنت عليه من سماعى امران

فقال له الشبل:

يقول الله: «ما طرق سمعك من القرآن فاحتديك به إلى وهو عطف من عليك، ولطف من بك!».

وما أردك به إلى نفسك فهو شفقة من عليك، لأنك لم يصح لك التبرؤ من الحول والقوة في التوجه إلى».

ويصل الأمر بالشبل أن يقول:

طرفة عين في غفلة عن الله لأهل المعرفة شرك».

هذا النمط من التوحيد الذي يبدأ مع المرید، منذ البداية، والذي تنتهى التوبة الصادقة إلى استشرافه. والذي هو طابع الاستقامة: هو البداية للتصوف، وهو النهاية أيضاً:

يدؤه معرفته: [واحدًا]!

ونهايته: توحيده.

وكما تثمر التوبة الصادقة الاستقامة، وكما تثمر الاخلاص المتصمن في الاستقامة، فإنها تثمر العمل.

ويقول الإمام الشبل:

«لسان العمل أقصص من لسان العلم».

وما من شك في أن العلم والعمل ضروريان، ولكن العلم إذا لم يشر
العمل، فإنه لا يكون علمًا نافعًا.

والشبل، بمجرد توبته جد في العبادة. واجتهد فيها اجتهدًا كبيرًا، إن
المؤرخين يقولون عنه:

«وكانت مجاهداته في بدايته فوق الحد».

ولكن فكرة التوحيد مسيطرة السيطرة الكاملة في كل خطوات
الصوفي، وهي التي جعلته يقول:

«من طلبه به تعالى صبح به توحيد ومن طلبه بنفسه لم يصح له توحيد».
ويقول:

«من طلب الحق بالمجاهدات فهو بعيد عن وصوله إلى مطلوبه، ومن
طلبه به تعالى وصل إليه» ثم أنشد:

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله: كيف محتمان؟
هي شاميه إذا ما استهلته وسهيل إذا استهل يمانى!
وسئل الشبل: هل يبلغ الإنسان بجهد إلى شيء من طرق الحقيقة أو
الحق؟ فقال

«لا بد من الاجتهاد والمجاهدة، لكنها لا يوصلان إلى شيء من الحقيقة
لامتناعها عن أن تدرك بجهد أو اجتهد، وإغا هي مواهب، يصل الصد

إليها بإيصال الحق تعالى لا غير، ولولا أنه تعالى به أهم بالمحبة، وهداهم، لما
أحيوه!»

لا بد من الاجتهاد والمجاهدة، والشبل يقول في وضوح:
«ليس لمريد فترة».

أي: أن المريد في مجاهدة دائمة، وكما يقول الجنيد عن التصوف:
«إنه عوة لا صلح فيها».

إنه جهاد مستمر، ولكن:

«ولولا فضل الله عليكم ورحمته، مازكى منكم من أحد أبدًا»

مجاهدة وخوف من الله، وأمل في القبول، ورجاء في الرضا.

ومع جد الشبل في الطاعات على وجه العموم، فإنه كان - حينها يدخل
شهر رمضان - جد في الطاعات أكثر، ويقول:

«هذا الشهر سظم الله، ثأنا أنوم بعظيمه»

وكان يقتدى في ذلك برسول الله، صلى الله عليه وسلم، الذي كان يجد
في الطاعات على وجه العموم، حتى إذا دخل شهر رمضان جد فوق جده،
حتى إذا دخلت العشر الأواخر من رمضان - كما تقول السيدة عائشة،
رضي الله عنها:

«... أحيى الليل، وأيقظ أهله، وحده وشد المنزر».

وسان العمل، لذي هو أفصح وأدل على التقوى من لسان العلم.

سمن

لذكر:

ولصوفية يهتمون بالذكر اهتمامًا بالغًا، ومن كلماتهم في ذلك: يقول
سبدي أبو مدين السلساني، رضي الله عنه:

«من دامت أذكاره صفت أسرار، ومن صفت أسرار كان في حضرة
الله تعالى قرار»

وقال الإمام القشيري:

«من خصائص الذكر أنه غير مؤقت بوقت، فبا من وقت لا مطالب به
إما وحبًا أو نهيًا، بخلاف غيره من الطاعات، وفي ذلك تفصيله على سائر
الأعمال...»

وما من شك في أنه مفضل على أعمال الفل، إذ أن الفروض موصوفة
وهي لا يستغنى عنها بشيء آخر، وهذا هو ما قصده المذلل رضي الله
عنه

وحاء في معاهد الحقيق كذلك - في معنى قوله تعالى

﴿فأذكروني أذكركم﴾.

نبي

ذكروني باللسان، أذكركم بنصح اللسان

ذكروني بالأسرار، أذكركم سر داف السمع ولا سرور

ذكروني بالمحضور، أذكركم بشتيع والسرور

ذكروني بالتعظيم، أذكركم بالمعز العظيم

أذكروني بالاحترام، أذكركم بالكرامه والإكرام

ذكروني بالهمة ولا اهتمام، أذكركم بالمحكمة والإلهام

ذكروني بالقلوب، أذكركم بكشف أسرار لميوب

أذكروني بالأركان، أذكركم بالمحبة والعرفان، اهـ

والصوفية حين يهتمون بالذكر، إنما يتابعون في ذلك رسول الله، صلى
الله عليه وسلم، وهو، صوات الله وسلامه عليه، يتابع توجيه القرآن
الكريم وهو:

﴿فأذكروني أذكركم﴾

ولقد حث الله سبحانه وتعالى على الذكر الكثير فقال سبحانه

﴿واذكر ربك في نفسك تضرعًا وخيفة، ودون الجهر من القول
بالغدر والأصال، ولا تكن من الغافلين﴾.

وحث الله سبحانه وتعالى على الذكر الكثير، فقال أمرًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

ووصف الله سبحانه وتعالى أصحاب العقول المستتيرة التي رضى عنها، لأنها اعتدت بهديه، فقال سبحانه مادحاً لهم:

﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاختِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، لَآيَاتٍ لِّأُولَى الْأَلْبَابِ﴾.

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ: رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا، سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.
﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمَنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مِنَ الْأَهْرَاقِ﴾.

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رِسْلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

ويصف الله سبحانه وتعالى المؤمنين الصادقين بصفات يرضى عنها اختتمها بقوله:

﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

والأمر بالذكر كثير في القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾

ويقول ابن عباس - رضى عنها - في هذه الآية:

«أى بالليل والنهار، فى البر والبحر، والسفر والحضر، والغنى والعقر، والمرضى والصحة، والسر والعلانية»

ويقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾

ويقول ابن عباس - رضى الله عنها - عن هذه الكلمة القرآنية الكريمة:

إن لها وجهين:

أحدهما: إن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه.

والآخر: إن ذكر الله أعظم من كل عبادة سواه.

ولقد تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً عن الذكر: مادحاً وأمرأ

عن أبي هريرة - رضى الله عنه فيما رواه الإمام مسلم، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير فى طريق مكة، فمر على جبل يقال له حمدان، فقال:

«سيروا: هذا جددان، سبق المفردون»

قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟

قال: «الذاكرون الله كثيراً»

وذكر هذا الحديث الترمذي وفيه:

يا رسول الله: وما المفردون؟

قال: المستهترون بذكر الله، يضع الذكر عنهم أنقلم فيأتون الله يوم القيامة خفافاً.

وكلمة: «المفردون» كما يذكر صاحب كتاب: «الترغيب والترهيب» بفتح الفاء وكسر الراء.

و«المستهترون» - بفتح التائين هم المولعون بالذكر، المداومون عليه، لا يبالون ما قيل فيهم، ولا ما فعل بهم.

وعن أبي موسى رضي الله عنه - فيما رواه البخاري - قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«مثل الذي يذكر الله - ربه - والذي لا يذكر الله مثل الحمى والميت».

وعن عبد الله بن مسر - رضي الله عنه، فيما رواه الحاكم بإسناد صحيح - أن رجلاً قال: يا رسول الله: إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ، فأخبرني بشيء أتشتبه به، قال:

«لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله».

ورحدث الصحابي الجليل «معاذ بن جبل» رضي الله عنه، فيقول، فيما رواه الطبراني وغيره:

«أحر كلام فارقت عليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن قلت أي الأعمال أحب إلى الله؟

قال:

«أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله»

ومن أجل الوصايا التي أوصى بها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ونفسه - ووصاياها صوات الله وسلامه عنه كنها حلة نفيسة - وصيته لأمن أنس حينما قالت له: يا رسول الله: أوصني:

قال:

«أعمرى المعاصي، فإنها أفضل لهجرة، وحافظي على الفرائض، فإنها أفضل الجهاد، وأكثرى من ذكر الله، فإنك لا تأتين بشيء أحب إليه من كثرة ذكره».

وأن من السبعة الذين يظلمهم الله بظلمه يوم لا ظل إلا ظله:

«رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من حمية الله».

وروى البيهقي في الشعب من حديث عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال الله عز وجل.

«من شمله ذكرى عن مسألتي، أعطيته أفضل ما أعطى المسألين» قال الإمام الصاوي:

وينبغي للإنسان أن يذكر الله كثيراً، لقوله تعالى:

﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

ولا يلتفت لواش، ولا رقيب، لقول السيد الحنفى خطاباً للعارف بالله تعالى أستاذنا الدردير:

سامعنى طرق أهل الله والتسبيك
دع عنك أهل الهوى سلم من الشكك
ادكرنى لرد المعترض بكبك
وحمل سلاف الحلالة دانسا في بك

والشيل - على غرار القوم - يهتم بالذكر اهتماماً بالعد، وهو يقيم
لاعتبار لذكر القلب، وفي ذلك يقول:

«ليس للأعمى من الجوهرة إلا لمسها»

«ولا للجاهل من الله إلا ذكره باللسان»

وسئل الشبلى عن أقرب أصحابه إليه، من يكون؟ فقال:

«ألهجهم بذكر الله، وأسرعهم مبادرة لرضاه».

ويعتبر الشبلى الذكر علاخاً، إن أبا حاتم الطبرى الصوفى يقول:

سمعت الشبلى يقول:

«ذكر الله على الصفاء، ينسى العبد مرارة البلاء».

والشبلى في ذلك يتابع القرآن الكريم في توجيهاته في الذكر. يقول سبحانه وتعالى:

﴿فاصبر على ما يقولون، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، ومن آتاء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى﴾.

ويقول سبحانه:

﴿قال اهبطا منها جميعاً، بعضكم لبعض عدو، فإذا يأتينكم منى هدى، فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً، ونحشره يوم النيامة أعمى﴾.

ومع مكانة الذكر الكبرى فإنه، فيما يروى الشبلى:

«ليس من استأنس بالذكر، كمن استأنس بالذكور».

وهذه الفكرة يكررها الشبلى في صورة أخرى، فقد سئل:

مق تستريح من الذكر؟

فأجاب:

«إني لا أستريح إلا إذا دخلت حضرة الشهود لأنها لا ذكر فيها

استعاء عنه بالشهود، لأن الذكر إنما هو للغائب!

• حول إن الذكر إنما يكون مع المحاب: لأنه دليل، فإذا شهد المدلول
نقد سقط الوقوف عند الدليل، بل سقط عن شهود الدليل ومروره على
الخطأ

وإذا استغرق الإنسان في الذكر وجد حلاوته، وقاده الذكر إلى كثير من
الأنوار والفيوضات، ومما يقوده الذكر إليه:

الزهد:

ولقد سئل الشبلي عن الزهد فقال:

حويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء

وهذه الكلمة في إيجازها الدقيق تلخص موقف الصوفية في الزهد، إنها
نسير في نسق مع قوله تعالى:

﴿لَكِنِّي لَا تَأْسُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾.

وهي لا تعني عدم امتلاك الأشياء، وإنما تعني أن لا يتعلق القلب بها.

ولقد سبق أن قلنا غير مرة إن الرهد في الدنيا لا يعنى لتجرد المتعمد
مها، وإنما يعنى أن لا تستعبد الدنيا الإنسان، ولو كان الإسلام يبحث على
التجرد من الدنيا، لما شرع نظام الزكاة، ونظام الزكاة هو أن تملك وتزكى

عما تملك، أي تخرج مما تملك ولما شرع الإسلام للبيع والشراء وكتابة الدين
والميراث وألّسلم والمضاربة وغير ذلك من أمور الثروة.

ولقد كان الكثير من الصوفية من الأغنياء يملكون الثروات وينصرفون
فيها كوكلاء لله عليها، وكثيراً ما يدعون الله بأن يشبههم ولا يكتفون بذلك
بل يدعونه - سبحانه - أن يجعلهم سبب الفنى لأوليائه

ولقد كان من دعاء أبي الحسن الشاذلي فيما يتعلق بالدنيا بمنتهى في المال
والثروة:

اللهم اجعلها في أيدينا ولا تجعلها في قلوبنا.

وكان من دعائه، رضى الله عنه:

اللهم وسع على رزقي في دنياي، ولا تحببني بها عن أخرى.

ولقد كان الكثير من الصحابة رضوان الله عليهم من ذوى الثروات
لضخمة، وكانت هذه الثروات في أيديهم ولم تكن في قلوبهم، وكاموا
ببذلونها سخية بها نفوسهم في سبيل الله؛ فيجهز بعضهم جيش العسرة.
وبحفر بئر رومة، ويتصدق آخرون في سبيل الله بالعالى والفيس، ويؤثرون
الله على كل شيء.

ومن جميل ما نذكره في ذلك، ما يتحدث عنه القرآن الكريم من آثار
الاستغفار التى تعم الدنيا والآخرة، يقول تعالى:

﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارًا ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾

ويقول:

﴿قلت استغفروا ربكم إنه كان غفارًا. يرسل السماء عليكم مدرارًا، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا﴾.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«من لزم الاستعفار جعل الله له من كل ضيق مخرجًا، ومن كل هم فرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب»^(١).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(٢).

وما يذكر القرآن من آثار التقوى في مثل قول الله سبحانه:

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾.

وقوله:

﴿إن المتقين في جنات وعيون، آخذين ما آتاهم ربهم، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين﴾.

(١) رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه.

(٢) رواه البخاري.

وقوله:

﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾.

وعن أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قرأ:

﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾

قال: قال ربكم:

«أنا أهل أن أتقى، فمن اتقاني فأنا أهل أن أغفر له»^(١).

والواقع أن الله سبحانه وتعالى لم ينجب عن خلقه - كما يقول الشبلي - إنما الخلق احتجبوا عنه بحب الدنيا، أي باستعبادها لهم، وبحسريهم وراءها وتكاليفهم عليها.

وإن في الجنة درجات للفقى الشاكر:

وحينما يستغرق الإنسان في الذكر، تقوده أنواره إلى:

التوكل:

ويقول الشبلي عن التوكل:

«يقول أحدهم: توكلت على الله، وهو يكذب عليه، لو توكل عليه

رضى بفعله».

(١) رواه الترمذي وابن ماجه والبيهقي.

والواقع أن التوكل يشمل التسليم ويشمل التفويض:

والتوكل متضمن بصورة طبيعية في الإيمان الصادق بـ «لا إله إلا الله»، وهو - إذن - من صميم الإيمان:

ويقول الإمام سهل بن عبد الله التستري:

العمل سنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

والتوكل، حاله صلى الله عليه وسلم.

ومن طعن في العمل فقد طعن في السنة

ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان.

وكلمة سهل هذه إنما تعني أن العمل والتوكل متلازمان، وذلك أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان يعمل طيلة حياته: مكافحاً ومجاهداً، وهادياً ومرشداً، وكان لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ودبر أمرها، وقدر لها ما يلزمها، وأحكم النظر فيها، وهو مع كل ذلك في كل لحظة من لحظات حياته متوكل على الله تعالى، وهو صلوات الله وسلامه عليه، العدو والأسوة والمثل الأعلى لكل الصوفية:

ومن أنوار الذكر:

الخوف والرجاء:

ولقد سئل الشبلي عن الخوف، فقال:

أن تخاف أن يسلمك إليك.

وسئل عن الرجاء، فقال:

ترجو أن لا يقطع بك دونه

وأجابات الشبلي في ذلك، إجابات رباني، تعلق كيانه كله بالله تعالى

ومن أنواع الذكر:

المحبة:

والآن نكتب عن صراط الأولياء، على حد تعبير الشبلي.

وصراط الأولياء: المحبة، إنها صراطهم الدائم حين يصلون إليها.

تلهج بها ألسنتهم، وتمتلئ بها قلوبهم إلى آخر نفس من حياتهم. والناس في العواطف درجات، ومنهم سلطان المحبين، ومنهم سلطان العاشقين.

ومهما جمع بالإنسان أمر المحبة، ومهما كان سلطانه، فإنه في الأوضاع الشرعية التي التزمها الصوفية له شروط وله علامات لن يتأق أن يكون الحب بدونها.

وقيل أن يبدأ في الحديث عن المحبة عند الشبلي، نحب أن نقف وقفة ضرورية في تصوير هذا الموضوع من كتاب الله وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم، ومن كلام علمائنا الأجلاء فيه

يقول الله تعالى في حديث قدسي:

«من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب» وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعذه».

وفي هذا الحديث الشريف يبدأ الله سبحانه بالتوجيه في قرّة إلى صفاء القلب وطهارة النية بالنسبة لأوليائه...

أوليائه هم: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾

ومن عاداهم فإنما يعادى: المؤمن التقى.

ونتيجة هذه العداوة ما يقوله الله تعالى:

«آذنته بالحرب»

ثم يرسم الله سبحانه الطريق إلى حبه: وأول خطوة في هذا الطريق:

«أداء ما افترضته عليه».

ولن يتأتى حب الله سبحانه دون الشرط الأول - شرط القرب منه

سبحانه - وهو أداء الفرائض.

والحب دون أداء الفرائض زيف وكذب، بل إن أداء الفرائض شرط

لحسن الظن بالله..

لقد ترك قوم العمل وقالوا: نحن نحسن الظن بالله، وكذبوا كما يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

«لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل...»

لا بد من أداء الفرائض، وإلا لما كان لمهلها إلى القرب من الله تعالى من سبيل. ومع أداء الفرائض - في جو القرب - الإكثار من النوافل، فإذا أكثر من النوافل أحبه الله تعالى.

«وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه».

ويترب على حب الله تعالى للعبد هذا الخير الكثير الذي ذكره الله، سبحانه وتعالى، في الحديث القدسي.

ويربط أسلافنا - رضوان الله عليهم - ربطاً محكمًا بين محبة الله سبحانه وتعالى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، متتاسفين في ذلك مع توجيه الله سبحانه

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾.

وهذا الربط معناه الربط بين محبة الله تعالى والعمل

ومقدمات محبة الله تعالى - مع توفيقه - هي العمل، ومن سائح محبة الله سبحانه: العمل.

يقول الإمام أبو سعيد الخزاز

وبلغنا عن الحسن البصري رضي الله عنه أن ناسًا قالوا على عهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم:

«يا رسول الله، إنا نحب ربنا حبًا شديدًا، فجعل الله تعالى لمحبيه علمًا وأنزل عز وجل»

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

فمن صدق المحبة اتباع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في هديه ورهده وأخلاقه، والتأسي به في الأمور، والإعراض عن الدنيا ورهقتها وبهجتها، فإن الله عز وجل جعل محمدًا، عليه الصلاة والسلام علمًا ودليلاً وصحة على أمته.

ومن صدق المحبة لله تعالى إثار محبة الله عز وجل في جميع الأمور على نفسه وهواك، وأن تبدأ في الأمور كلها بأمره قبل أمر نفسك. ويقول:

فعلامة المحب الموافقة للمحبوب، والتجاري مع طرقاته في كل الأمور، والتقرب إليه بكل حيلة، والحرب من كل ما لا يعينه على مذهبه.

أما عن صلة المحبة بالإيمان، فإن الإمام الغزالي يقول.

«وقد جعل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الحب لله من شرط الإيمان

في أخبار كثيرة:

إذ قال أبو رزين العقيلي: يا رسول الله، ما الإيمان؟

قال: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

وفي حديث آخر:

«لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين».

وفي رواية: ومن نفسه.

كيف وقد قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ، وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا، وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا، أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

«وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والإنكار». اهـ.

ومن أجل تعبيرات المحبين عن شعورهم ، ما يقوله يحيى بن معاذ:

«إلهي إني مقيم بعنائك، مشغول بشنائك، صغيراً أخذتني إليك، وسربلتني بمعرفتك، وأمكنني من لطفك، ونفقتني في الأحوال، وقبليتني في الأعمال: سترًا وتوبة، وزهدًا وشوقًا، ورضا وحبًا.. نسقبتني من حياضك، وقهلتني في رياضك ، ملارمًا لأمرك، ومشغوفًا بقولك، وهاطر شاربي، ولاح

طائري، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً. وقد اعتدت هذا منك صغيراً.
على ما بقيت حولك دذنة، وبالضراعة إليك مهمة، لأني محب، وكل محب
بحبيبه مشغوف، وعن غير حبيبه مصروف». اهـ

وبعد: فإن ثمرة محبة الله تعالى هي ما قاله سبحانه عن أوليائه:
﴿لهم اليسرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله،
ذلك هو الفوز العظيم﴾.

وهي أيضاً أن يجد حلاوة الإيمان. يقول رسول الله، صلى الله عليه
وسلم: ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان:

- ١ - أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.
- ٢ - وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله.

٣ - وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار.
ولقد سمع الناس كثيراً عن عاطفة الحب الإلهي عند السيدة رابعة
العتوية رضي الله عنها، وسمعوا عن حب الإمام ابن الفارض، والإمام
البرعي.

ونحب أن نضع بجوار هؤلاء شخصية الإمام الشبلي!

وإذا كان الجهم الفقير من الشعب الإسلامي قد أخذ فكرة عن الحب
عند بعض الصوفية، فإنه لم تتح له الفرصة لأخذ فكرة مستفيضة عن

الحب عند الشبلي، ولكن المؤرخين لمياه أبي بكر الشبلي يتحدثون عن
حبه العميق وهيامه المستمر.. ومنهم، مثلاً، صاحب الحلية الذي يقول عنه:
ومنهم المحتذب الوهاش، والمستلب السكران، لوارد العطشان: اجتنب
عن الكدور والأغياره واستلب إلى الحضور والأنوار، وسقى بالدنان،
وارتبن محتلاً ريان: أبو بكر الشهير بالشبلي

وسيرى القارئ أن أسباب المحبة عنده، وأن ثمارها، وأن تعريفها،
وكل ما يحيط بها تنغمس في جو من الاتباع لرسول الله، صلى الله عليه
وسلم، وشعار من التزام الشريعة الفراء!

وهكذا يتخذ الصوفية الشريعة والافتداء برسول الله، صلى الله عليه
وسلم، أساساً لكل تصرفاتهم.

أما عن أسبابها فإنها، فيما يرى الشبلي نتيجة «الهمة»: والهمة عند
الصوفية هي التشمير والجهد في العبادة.

ويقول الشبلي:

«إن من ملت همته، ضمعت محبته».

نفع الهمة إذن صعوداً وهبوطاً تكون المحبة صعوداً وهبوطاً.

ولقد جلس عنده جمع من المريدين، فوجدتهم غفلة لا يذكرون، فقال
في حزن:

كفى حزناً بالواله الصب أن يرى - من نارل - من يهوى معطلة قفراً
وسئل مرة عن أحب شيء، فقال:
«من عرف الله ثم عصاه».

ولا يسر المحب شيء أكثر من موافقة من يحب؛

قال أبو القاسم عبد الله بن علي البصري: قال رجل للشبلي:
إلى ماذا تستريح قلوب المشتاقين؟ قال:
«إلى سرور من اشتاقوا إليه وموافقته». وأنشد:

أسر بمهلكي فيه لأنى أسر بما يسر الألف جدا
ولو سنلت عظامي عن بلاها لأنكرت البلى وسمعت جمدا
ولو أخرجت من سقمي لنادى لهيب الشوق بي يسأله ردا
ولا بد للمحب من الأدب الكامل في القول، فصلا عن السلوك.
ويقول الشبلي:

الانسياط مع الحق بالقول ترك أدب؛

والمحبة رقى للمحبيب، وإذا سألت عن الفرق بين رقى العبودية ورق
المحبة، فإن أحمد بن محمد بن عمران قال:

سمعت الشبلي - وسئل - فقيلاً: ما الفرق بين رقى العبودية ورق

المحبة؟ فقال: كم بين عبد إذا أعتق صار حراً، وعبد كلما أعتق ارداداً
ثم أنشأ يقول:

لتحشرن عظامي بعد إذ بليت يوم الحساب وفيها حكم علق
وقد يسأل إنسان عن تعريف المحبة عند الشبلي ما هي؟
إنه يقول:

«المحبة إتباع أوامر المحبوب، وتجنب نواهيه، ومع ذلك فيجب الصدق
والإخلاص، وكنمان الحال مع بذل الجهد في المجاهدة، ثم بعد ذلك
لا توصل للمحبيب إلا بفضل».

«قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا».

ويقول محمد بن أحمد بن يعقوب الوراق: سمعت الشبلي.
وسئل عن المحبة، فقال: المحبة الفراغ للحبيب، وترك الاعتراض على
الرقيب.

ويقول الشبلي أيضاً:

المحبة كأس لها وهج، إن استقرت في لحواس قتلت، وإن سكنت في
النفوس أسكرت، فهي سكر في الظاهر، ومحبة في الباطن.
(٣٢٢ كواكب)

ولقد سنل الشبلي، هل تظهر صحة لوجود على الواجدين؟

فصل سوراً معارفاً لغيران الاشتياؤ، فيلوح على هكر اثراها
أما الأس فإسه - كما يقول الشبلى وحشت في جمع ما قطعك عنه
وتسرعك فيه

[٣٣ كواكب]

وينحدث الشبلى بكلمة عن المحبة الكاملة، فيقول في عمق عميق
المحبة الكاملة أن تحبه من قبله.

وكما كان الشبلى يعبر عن حبه وهيامه بذكره وتهجده، وقيامه وصيامه.
بأنه كان يعبر عن ذلك بقوله، وأكثر تعبيراته بالقول إنما كان بالشعر سواء
أكان من نظمه هو أم نظم غيره.

والآن نسوق مجموعة من تعبيراته بالشعر دون أن نلتزم فيها ترتيباً
معيناً، ونأسف إذا لم يصلنا كل ما قال في ذلك.

يقول أبو الفرج محمد بن عبيد الشاعر المعروف بالبارد:

سمعت الشبلى ينشد:

ليس تخلو جوارحي منك وقتاً هي مشغولة بحمل هواك
ليس يجرى على لساني شيء - علم الله ذا - سوى ذكراك
وثقلت حيث كنت بمعنى فهي إن غبت أو حصرت تراك
[تاريخ بغداد ص ٣٩٠ - ٣٩١]

ويقول عبد الله بن موسى السلامي، سمعت الشبلى يقول:

ذكرتك لا أنى نسيتك لحظة وأيسر ما في الذكر ذكر لساني
وكدت بلا وحدا موت من الهوى وهام على القلب بالخمقان
فلما أراقى الوجد ألك حاضري شهدتك موحوداً بكل مكان
فخاطبت موجوداً بكل تكلم ولا حظت معلوماً بغير عيان

وحج، فلما رأى الكعبة أغشى عليه، ثم أشد:

هذه دارهم وأنت محب ما بقاء الدموع في الآفاق

وقيل له: ما بال الرجل يسمع الشيء ولا يفهم معناه، فقال:

رُبَّ ورقاء هتوف في الصبح ذات شجو صدحت في فتن
ذكرت إلفاً ودعراً صالحاً فبكت حزناً وهاجت حزني
فبكاني ربما أرقها وبسكاها ربما أرقني
ولقد تشكو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهمني
غير أنى بالجوى أعرفها وهي أيضاً بالجوى تعرفني

وحكى الخطيب، في تاريخه، قال أبو الحسن التميمي:

دخلت على أبي بكر في داره يوماً وهو يبكي ويقول:

على بعدك لا يصبر من عادته القرب
ولا يقوى على هجر ك من تيممه الحب
فإن لم ترك العين فقد يضر ك القلب

وذكر الخطيب أيضًا في ترجمة أبي سعيد إسماعيل بن علي الواعظ أن
أبا سعيد قال:

أنشدنا طاهر الخثعمي، قال: أنشدني الشبل لنفسه:

مست الشبيبة والحبيبة فأنبرى دمعان في الأبحان يزدحمان
ما أنصفتي الحادثات رميتي بمودعين وليس لي قلبان

[صر ٤٠: الوفيات]

وأخبر أبو بكر أحمد بن علي بن يزداد القاري، قال: سمعت زيد بن
رفعة الهاشمي قال: سمعت أبا بكر الشبل ينشد في جامع المدينة يوم
الجمعة والناس حوله:

يقول خليلي كيف صبرك عنهم فقلت وهل صبر فيسأل عن كيف
يقلى هوى أذكى من النار حره وأصل من التقوى، رَأَيْتُ مِنْ السَّيْفِ

وأنشد أبو بكر الازدي، ما أنشده الشبل:

وإني وإياه لفي الحب صادق نموت بما نهوى جميعاً ولا نبدي

وقد جاء رجل إلى الشبل فقال: كم تهلك نفسك بهذه الدعاوى ولا
دعها؟ فأشأ يقول متملاً:

إني وإن كنت قد أسأت في اليوم م لراج للعطف منك غداً

سدمع سوتف بإسرحه ومن لم أرمسك ما أرحى بُه
عرر نفسي بكم وأجدهم نفسي ترى العى فيكم رسد

وكان عبد الله بن محمد الدمشقي يقول: كنت واقفاً على حلقة الشبل
في جامع المدينة، فوقف سائل على حلقة وجعل يقول:

يا الله، يا حوادا فتأوه الشبل وصاح، فقال:

كيف يمكنني أن أصف الحق بالجوهر، ومخلوق يقول في شكته:

نعود بسط الكف حق لو أنه ثناها لقبض لم تحبه أنامله
تراه - إذا ما جنته - متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله
ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتيق الله سائله
هو البحر من أي النواحي أبيت فليحت المعروف والجود ساحله

ثم بكى، وقال: بلى يا جوذاً، فأبك أوجدت تلك الجوارح وبسطت تلك
الهمم، ثم مننت - بعد ذلك - على أقوام بمنزلة الاستغناء عنهم، وعما في
أيديهم بك، فأبك الحواد كل الحواد لأنهم يعطون عن محدود وعطاؤك
لا حد له ولا صفة، فها جواد يعلو كل جواد، وبه جاد كل من جاد!
[٣٤١: السلمي]

وقال أبو العاسم عبد الله بن محمد: وكنت يوماً في حلقة، فسمعت
يقول: «الحق يقضى بما به يُبقى، ويبقى بما به يُقضى».

[يقضى بما فيه بقاء، ويبقى بما فيه فناء]. فإذا أفنى عبداً عن إياه أوصله

به، وأشرفه على أسرارهم، وبكى وأنشد:

ها - في طرفها - لمخاطات سحر تبيت بها ونحى من تريد
ونسى العالمين بمقلتها كأن العالمين لها عبيد
ألاحظها فتعلم ما بقلبي وألحظها فتعلم ما أريد
وبعد: فلقد تقرب الشبل إلى الله تعالى - كما تقرب أئمة الصوفية -
بأداء الفرائض، وطرق باب المحبة - كما طرق بابها أئمة التصوف -
بالإكثار من التواضع.

وهده الله ووفقه - كما هدهم ووفقهم - إلى السير على صراط
الأولياء: المحبة

ثمار:

وانتهى الجهاد والمجاهدة بالشبل - بتوفيق الله - إلى درجة من
الصفاء، أخذ يتحدث فيها عن أمور هي أثر لتجربته الشخصية.
وفي حديثه ما يدل على أنه وصل إلى التحقيق بتعريفه للتصوف من
قوله: «ونهايته توحيد»

يقول: محمد بن إبراهيم سمعت الشبل يقول:

«وقفت بعرة فطالبت الوقت، فما رأيت أحداً له في التوحيد نفس، ثم
رحمتهم فقلت: ياسيدي: إن منعهم إرادتك فيهم، فلا تمنعهم مناهم منك!»

وتحدث الشبل عن سمات الطريق، ومن ذلك ما يقوله أبو بكر أحمد
بن يعقوب الوارق: سمعت أبا بكر الشبل يقول:

«صاحب الهمّة لا يشتغل بشيء، وصاحب الإرادة يشتغل بشيء»
وقال: «الهمّة لله، وما دونه ليس بهمة».

قال: وسمعت يقول:

«ما ميزتموه بأوهامكم، وأدركتموه بقولكم في أتم معانيكم، فهو مردود
إليكم محدث مصنوع».

وكان يقول:

«طرح العادات، وصول إلى الكرامات، ومن حقق رقه لمولاه،
استوحش مما سواه».

وقال:

«من عرف الله لا يكون له غم».

أما عن الوصول: فقد سمع الشبل وهو يقول:

«الأرواح تلطفت، فتعلقت عند لدغات الحقيقة، فلم تترغب الحق
معبوداً يستحق العبادة، فأيقن أن المحدث لا يدرك القديم بصفات
مطلوبة، فإذا صفاه الحق أوصله إليه»

فيكون الحق أوصله إليه - لا وصل هوا

ويقول عمر البناء المزوق البعداوى بمكة: سمعت اشبلى يقول
«ليس من احتجب بالخلق عن الحق، كمن احتجب بالحق عن الخلق
وليس من جذبته أنوار قدسه إلى أسفه، كمن جذبته أنوار رحمته إلى
معرفته!»

ولا يسعنا في نهاية الحديث عن تصوف الشبلى إلا أن نذكر هذه
لكلمات التي تعتبر شعوراً لكل سالك تذوق ووجد
إنه يقول: «الفرح ياقه أولى من الحزن بين يدي الله»
وكان رضى الله عنه، يقول:

«قلوب أهل الحق طائفة إليه بأجنحة المعرفة، ومستشرة إليه بموالاة
لمعية»

الفصل الرابع

التصوف ولشريعة عند الشبلى

التصوف والشرعة

والتصوف عند الشبلى - وعند غيره من الصوفية - لا يتأنى أن يقوم
إلا على أساس من الشرعة. وللصوفية عن ذلك ما لا يحصى من العالمين
والصائغ والأوامر.

وقد كتبنا في ذلك فصولاً مطولة في كتاب «المتقذ من لضللال». والشبلى
يوجز ذلك في لمحات تبين منهجه وتوضح طريق الصوفية في ذلك:

يقول المؤرخون عن الشبلى:

«وكان يبألف في تعظيم الشرع المطهر»

وكان إذا دخل شهر رمضان المبارك جد في الطاعات. ويقول

«هنا شهر عظيم رب فأنا أقدم به على ..»

وكان الشبلى يقول:

كل صديق لا يكون له معجزة فهو كذاب؛

فلما دخل دار العلاج، دخل الوزير عليه، فقال

أين قولك:

«كل صديق بلا معجزة كذاب؟»

فأين معجزتك أنت؟ فقال:

«موافقة الله في أوامره ونواهيه».

وهذه الكلمة: «موافقة الله في أوامره ونواهيه»، هي شعار من شعارات
الصوفية يحرصون عليه كل الحرص.

وكما قال سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه،

«لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدمي في الجنة!»

فإن الشبلى يقول

«لا تأمن على نفسك وإن مشيت على الماء حتى تخرج من دار الغرور
إلى دار الأمن»

وروى الحسن بن أحمد الصفار قال: سئل الشبلى - وأنا حاضر - أى
شئ أعجب؟ قال:

«قلب عرف ربه ثم عصاه».

ولشدة تمسك الشبلى بالشرعة، كان بعض الصالحين يراه في الرؤيا كما
يروى السلمي - ولسانه يلهج بالتمسك بالشرعة. ومن ذلك أن محمد بن
الحسن بن الخشاب يقول:

سمعت بعض أصحاب الشبلى يقول

رأيت الشبلى في المنام، فقلت له

يا أبا بكر: من أسعد أصحابك بصحبتك؟

فقال:

أعظمهم لحرمان الله، وألمجهم بذكر الله، وأقومهم بحق الله، وأسرعهم
مبادرة في إرضاء الله وأعرفهم بنقصانه، وأكثرهم تعظيماً لما عظم الله من
حرمة عبادته

وسئل الشبلى عن كمال العقل، وكمال المعرفة، فقال:

«إذا كنت قائماً بما أمرت، تاركاً لتكلف ما كفت، فأنت كامل لعقل،
وإذا كنت بالله متعلقاً لا بأعمالك، غير ناظر إلى سواءه، فأنت كامل
المعرفة»

ويقول محمد بن علي بن حميش:

أدخل الشبلى دار المرض ليعالج. فدخل عليه علي بن عيسى الوزير
عائداً، فأقبل علي الوزير، فقال: ما فعل ربك؟

فقال الوزير:

في السماء يقضى وعصى.

فقال

سألتك عن الرب الذي تعبد، لا عن الرب الذي لا تعبد - يريد
الخليفة المقتدر - فقال علي لبعض حاضريه، باطره

فقال الرجل:

يا أبا بكر، سمعتك تقول في صحبتك

«كل صديق بلا معجزة كذاب»، وأنت صديق فما معجرتك؟

قال:

معجرتي أن تعرض خاطري في حال صحوى على خاطري في حال
سكري، فلا يخرجان عن موافقة الله تعالى!

الفصل تحت خمس

متنثرات
من الحكم والمواعظ والطرائف

متنائرات من الحكم والمواعظ والطرائف

يقول صاحب الكواكب:

ومن كلامه وحكمه التي وشعبها بالفاظه وأقلامه، ونضد عقدها بإحكام
أحكامه، وملاً بحيوشها صدور مهامه، قال:

«لا يكمل فقير حتى تستوى حالته «بقراً وحضراً وغيباً ومشهداً»
والفقير في لغته هو الصوفي، لأنه في كل أوقاته وأحواله فقير إلى الله تعالى.

وقال:

«وقست بعرمة فطالب الناس بما يجب من الحضور والإجلال، فرأيت
العالم عليهم التقصير، فرحمتهم وقلت:

«إلهي إن منعتهم إرادتك فيهم، فلا تمنعهم مناهم منك». اهـ.

ويقول أبو الحسن بن سمعون، قال لي الشبل:

كنت باليمن وكان بباب دار الأمير رحبة عظيمة، وفيها خلق كثير فقام

سظرون إلى منطرة - فإذا قد ظهر من المنطرة شخص أخرج يده كالمسلم
عليهم، فسجدوا كلهم، فلما كان بعد سنين كنت بالشام، وإذا تلك اليد قد
اشتريت لها بدرهم وحملته، ففقت له:

أنت ذلك الرجل؟

قال: نعم، من رأى ذاك ورأى هذا يفتر بالدنيا؟

وقال:

ألا شحاً بحنين! ألا رقة بأين من قلب قريح حزين! ألا شارب بكأس
العارفين! ألا غارق في بحار المحبين! ألا هائم في ميدان العاشقين،
ألا متنبه من رقة، يا مسكين ستقدم فتعلم، سيكشف لك العطاء فتدب،
كيف بك وقد كشف العطاء، وتحمل الحليل لفصل القضاء، يا مسكين لم
نبيكي وتصح؟

دع المعاصي فتستريح، لم هذا الإبطاء، ولم هذا الانتحاب، صف في
الدبا جي على الباب، وكان يقول - في صورة رمزية -

«إنما تصفر الشمس عند لغروب، لأنها عزلت من مكان النعام،
فاصفرت لخوف المقام، وهكذا المؤمن إذا قارب خروجه من الدنيا اصفر
لونه، فإنه يخاف المقام، وإذا طلعت الشمس طلعت مصبغة منيرة، كذلك
المؤمن إذا خرج من قبره خرج ووجهه مشرق مصى».

وكان رضى الله عنه يقول:

«ما طلك بشمس! الشموس كلها فيها ظلمة».

وقال:

«الوفاء: الإخلاص في التطوع، واستعراق السرائر بالصدق».

ويقول:

«الحرية هي حرية القلب لا غير».

وقال: «الإفلاس يأناس، الاستئناس بالناس».

وقال: «الزم الوحدة، واسح اسمك من القوم، والزم الجدار حتى تموت».

وقال

«أهل البلاء أهل التفلة عن الله».

وقال:

«صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار».

وقال

«رفع الله العباد على قدر علو همهم، فلو أجرى على الأولياء دية

بما أجزاه على الأنبياء ذابوا وتقطعوا».

وقال:

«كل صديق ليس له كرامة فهو كذاب».

وكان أبو بكر الدينوري، خادم الشبلي، يقول: سمعت الشبلي يقول

قبل موته:

«على درهم واحد مظلمة ظلمته يوم ولايتي، وقد تصدقت عن صاحبه

بألف، وما على قلبي أعظم منه».

وكان إذا دخل عليه فقير يقول له:

أعنتك خيرا! أو عندك أثر؟ ثم ينشد:

أسائل عن ليل فهل من محبر يخبرنا علما بما أين تنزل؟

ثم يقول:

«وعزتك وجلالك ما غيرك في الدارين محبر».

وقال:

«مر بي بهلول المجنون وهو خارج إلى المقابر، ومعه قصبة جعلها فرسه

وبيده مفرقة وهو يحدو، فقلت: إلى أين؟ فقال:

إلى العرض على الله، فجلست حتى رجع، وقد انكسرت القصبة،

واحترت عيانه من البكاء، قلت له:

ما كان منك؟ قال

وقفت بين يديه على أن يكتفى من الخدام، فلما عرني طردني»
وحاء نصراني فأسلم، فقال:

ما سبب إسلامك؟

قال: كنت حال الصرانية أكرم دين لصرانية، فرزقت دين الإسلام
ببركة إكرامى ذلك الدين.. فصاح الشبل وقال:

إذا كان من يكرم الدين الباطل يرزقه الله الدين الحق، فمن يكرم
لدين الحق لا يرزقه الله الرحمة والمعرفة؟

وقال:

«لو كان لى فى يوم القيامة أمر لسألت الله أن يلا جهنم منى وحدى،
لئلا يبقى فيها متسع لغيرى، لأفدى بعض أمة محمد، فرأى فى نومه الله
يقول.

أما تستحي أن تقول ما قلت...؟ إن كنت تتكرم على خلقى بما يضرى،
فأنا خالق الكرم، وأولى أن أتكرم عليهم بما لا يضرى.

قلت: وعزتك قد بُهت، فلم أدر ما أقول.

وحاء رجل فقال: أى الصر أشد؟ قال: الصر فى الله؟

قال: لا. قال: فالصر مع الله؟ قال: لا. قال: فالصر الله؟
قال: لا

قال: فأى شيء؟ قال: لصر عن الله، فصرح الشبل صراحة «كادت
روحه أن تخرج»، ثم أنشد:
الصر يحمل فى المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يحمل

ولقد كان الشبل كثيرًا ما يتمثل بهذين البيتين
والهجر لو سكن الجبان تحولت نعم الجبان على العبيد جحبا
والوص لو سكن الجحيم تحولت حر السحر على العباد تعباً

وكان يقول:

ليس للمريد فترة، ولا للعارف علاقة، ولا للمحب شكوى،
ولا لنصديق دعوى، ولا للخائف قرار، ولا للخلق من الله فرار.

وقال:

«ليس من احتجب بالخلق عن الحق، كمن احتجب بالحق عن الحق،
وليس من جذبته أنوار قدسه إلى أنسه، كمن جذبته أنوار رحمته إلى
معرفته»

ويقول:

«العارف لا يكون بكلام غيره لافتًا، ولا لغیر لاحظًا، ولا يرى غير
الله حافظًا»

ورنى خارجاً من مسجد يوم عيد وهو يقول.

إذا ما كنت لي عيداً فما أصعب بالعيد
حسرى حبك في قلبي كجرى الماء في العود

وقيل له: العيد قد أقبل، والناس يتزينون، وأنت هكذا؟

فقال: زينة الفقير (الصوقي) فقره، وصبره على فقره.

وفي العيد أيضاً يقول:

قالوا: أتى العيد ماذا أنت لا بهه
فقلت: حلعة ساقى حبة حرعا
فقر وصبرها ثوباً تحبها
فلب يرى إلفه الأعياد والجمعا
والدهر لي مأم إن غبت ما أملى
والعيد ما كنت لي مرأى ومسعا
أحسرى الملابس ما تلقى الحبيب به
يوم الزاور في الشرب الذي حلما

وقد سمع أحمد بن محمد بن مقسم الشبلي يقول.

«نظرت في ذل كل ذى ذل فزاد ذلى عليهم!

ونظرت في عز كل ذى عز فزاد عزى عليهم!

فإذا عزهم ذل في عزى!

وتلا في إثره: «ومن كان يريد العزة، فلله العزة جميعاً».

وكان يقول:

من اعتز يذى العز، فذل العز له عز.

وقال

أطلت علينا منك يوماً عمامة
أصاء لها برق وأبطار شاشها
ملا عيمها بجلو قبيس طامع
ولا غينها بأقوى مبروى عطاشها

وقال رجل للشبلي: ادع الله لي، فأنشأ يقول:

مضى رمن والناس يستشفعون بي
فهو لي إلى ليل القداة شفع!

وكان يشد في محله

الغيب رطب يساوي
يا غافلين الصبح
فقلت: أهلاً وسهلاً
ما دام في الجسم روح

ونقول:

قيل لي مجنون ليل فرضيت، ثم أنشد:

قالوا جنت على ليل فقلت لهم
الحب أسره ما بالمعاصين

ثم أنشد وقال:

جسا على ليلى وجنت بغيرنا
وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

ثم أنشد

ولو قلت طأى النار يادوت نحوها
سرورا لأنى قد خطرت ببالكا

ثم أنشد:

سأليس للصبر ثوباً جيلاً
وأدرج ليل ليلاً طويلاً

وأصبر بالرغم لا بالرضا أعلل نفسي قليلاً قليلاً
ثم أنشد وقال:

قالوا تنقبِ وذر فقلت لهم أشهر ما كنت حين أنقبِ
إن عرفوني وأنبهوا صفق أصبحت درا والدر ينتهب
ولقد سئل الشبلي عن قول بعضهم:

«لا تفرنكم هذه القبور، وهدوها، فكم من فرح سرور، وداع بالويل
والثبور!»

فقالوا: أيما هي القبور عندك؟ قبور الأموات؟

قال: لا! بل أنتم القبور، كل واحد منكم مدفون، فلمعرض عن الله داع
بالويل والثبور، والمقبل على الله الفرحة السرور.

ثم أنشأ يقول:

قبور الوري تحت التراب وللوري رجال لهم تحت الثياب قبور
فقلت له: يا سيدي: وسعد في الموتي؟ فقال

يحبك قلبي ما حبيت فإن أمت يحبك عظم في التراب رميم
وسأله سائل: هل يتحقق العارف بما يبدو له؟ فقال:

«كيف يتحقق بما لا يثبت!»

وكيف يطمئن إلى ما لا يظهر!»

«وكيف يأس بما يخفى!»

«فهو الظاهر الباطن، والباطن الظاهر». ثم أنشأ يقول

فمن كان في طول الهوى ذائق سلوة فباني من ليل لها غير دائق
وأكثر شيء نلته من وصلها أمانى لم تصدق كلمحة بارق

وقال رجل للشبلي: هل شاهدت أحد بحقيقته؟ فقال:

«الحقيقة بعيدة، ولكن ظنون، وأمانى وحسان». وأنشد:

وكذبت طرفي فيك والطرف صادق وأسمنت أذني منك ما ليس تسمع
ولم أسكن الأرض التي تسكنوها لكيلا يقولوا: إنى بك مولع
فلا كبدى تهدأ ولالك رحمة ولا عيك إقصاء ولا فيك مطمع

فإذا تراءى له تحميق حال، شوشه بالتلبس والأشكال»

وكثيراً ما كان الشبلي ينشد:

ودادكم هجر وحكم قلبي ووصلكم حرم وسلمكم حرب

وكان ينشد كثيراً أيضاً:

لا بدأ طالماً غابت لهيئته شمس النهار ولم يطلع لنا قمر

وقال أبو نظر الطوسي:

سمعت الحصري يقول: سمعت الشبلي يقول

«أعنى الله بصراً يرائي. ولا يرى في آثار القدرة، فأننا أحد أدار
القدرة، وأحد شواهد العزة. لقد دلت حتى عز في ذل كل دل، وعززت
حتى ما تعزز أحد إلا بي، أو بمن تعززت به، وما افترقنا، وكيف نفرق ولم
يجر علينا حال الجمع أبداً؟».

وقيل للشبلي: متى يكون الشخص مريداً؟

قال:

إذا استوت حالاته في السفر والحضر، والمشهد والمخيب؟»

الفصل السادس

تقدير الشبلي

تقديره

لقد استفاض الكثيرون في الثناء عليه، خصوصاً أصحاب الطبقات، ومن ذلك ما يقوله صاحب «الكواكب الدرية»، إنه يقول
إمام اشتهر شرفه، وسمت في جنان المعرفة غرره، وأضاء كوكب زهده
وديانته، ونما فرع ورعه وصيانته!

ويقول أيضاً: «صار أوحده رفته: علماً وحالاً».

وقال العروسي في «حاشية الرسالة القشيرية» عن الشبلي
فكان لا نظير له في مجاهداته ومعاملاته لربه، وفي كياسته وحذقه ودكاه
قريحته، وتنبهه على مكملات الرجوع إلى الحق باستحلال الخلق، وإن
تحقق الخلو من حقوقهم اتهاماً للنفس بالذهول والتقصير..

ويقول عنه الإمام الشمراني

«.. صار أوحده أهل الوقت علماً وحالاً وظرفاً»

ولقد مشى الشبلي يوماً إلى أن جاء إلى مسجد أبي بكر بن مجاهد،
مدخل على أبي بكر، فقام إليه أبو بكر فتحدث أصحاب ابن مجاهد

بحديثهما، وقالوا لأبي بكر: أنت لم تقم لعلي بن عيسى الوزير، وتقوه
شبلي!

نقال أبو بكر: ألا أقوم لمن يعطيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم!
رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، في النوم فقال لي:
يا أبا بكر إذا كان في غد فسيدخل عليك رجل من أهل الجنة، فإذا
جاءك فأكرمه! - قال ابن مجاهد: فما كان بعد ذلك بثلاثين أو أكثر، رأيت
لنبي، صلى الله عليه وسلم، في المنام، فقال لي:

يا أبا بكر أكرمك الله كما أكرمت رجلاً من أهل الجنة، فقلت
يا رسول الله! بما استحق الشبلي هذا منك؟ فقال:

هذا رجل يصلي كل يوم خمس صلوات، يذكرني في إثر كل صلاة،
ونقرأ:

«لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتم، حريص
عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم».

«فإن تولوا فقل: حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب
العرش العظيم»... أملاً أكرم من يفعل هذا؟

ولقد ذكرنا أيضاً خلال ما كتبنا، من فصول بعض ما أثنى به على
الشبلي

تقديره .

لقد استفاد الكثيرون في الثناء عليه، خصوصاً أصحاب الطبقات، ومن ذلك ما يقوله صاحب «الكواكب الدرية»، إنه يقول:
إمام اشتهر شرفه، وسمت في جنان المعرفة غرته، وأضاء كوكب زهده
وديانته، وغما فرع ورعه وصيانته!

ويقول أيضاً: «صار أوحده وقته: علماً وحالاً»

وقال العروسي في «حاشية الرسالة القشيرية» عن الشبل:
فكان لا نظير له في مجاهداته ومعاملاته لربه، وفي كياسته وحذقه ودكائه
قرينته، وتنبهه على مكملات الرجوع إلى الحق باستحلال الخلق، وإن
تحقق الخلو من حقوقهم اتهاماً للنفس بالذهون والتقصير.

ويقول عنه الإمام الشعراي:

«... صار أوحده أهل الوقت علماً وحالاً وظيفاً».

ولقد مشى الشبل يوماً إلى أن جاء إلى مسجد أبي بكر بن مجاهد،
مدخل على أبي بكر، فقام إليه أبو بكر فتحدث أصحاب ابن مجاهد

بعدينها، وقالوا لأبي بكر: أنت لم تقم لعل بن عيسى الوزير، وتقوم
للسبل؟

فقال أبو بكر: ألا أقوم لمن يعظمه رسول الله، صلى الله عليه وسلم!
رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، في النوم فقال لي:

يا أبا بكر إذا كان في غد فسيدخل عليك رجل من أهل الجنة، فإذا
جاءك فأكرمه! - قال ابن مجاهد: فلما كان بعد ذلك ثلاثين أو أكثر، رأيت
النبي، صلى الله عليه وسلم، في المنام، فقال لي:

يا أبا بكر أكرمك الله كما أكرمت رجلاً من أهل الجنة، فقلت
يا رسول الله! بما استحق الشبل هذا منك؟ فقال:

هذا رجل يصل كل يوم خمس صلوات، يذكرني في إثر كل صلاة،
ويقراً:

«لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتم، حريص
عليكم بالمؤمنين وؤوفهم رحيم».

«فإن تولوا فقل: حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب
العرش العظيم»... أفلا أكرم من يفعل هذا؟

ولقد ذكرنا أيضاً خلال ما كتبناه من فصول بعض ما أتى به على
السبل

ويقول صاحب الكامل في التاريخ:

أحد مشايخ الصوفية الكبار... ولى خاله إمرة الإسكندرية، وولى أبوه
حجابه المحجوب، وولى هو حجابه الموفق ولى المهدي

وسبب توبته أنه حصر مجلس «خير النساء» فسمعه يعظ، فوقع في
قلبه كلامه: فتأب من فوره.

وصحب الجنيد ومن في عصره، وصار أحد مشايخ الوقت حالاً وقالاً.

اغتنل السابغ وفاته

الشار

الذي

أنة

الله عنه

وحدث

وعرق

لحيته -

ي شيء

بئها أن يقال لرحل لم يذهب عليه تحليل لحيته في الوضوء عند نزوع
روحهم، وأمسك لسانه وعرق حبيبه؟

وفي ليلة وفاته أخذ الشبل يذكر تارة، وتارة يردد هيس ابي

كل بيت أت ساكنه غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا يوم تأق الناس بالمجمع
رحمه الله رحمة واسعة وحزاه حير ما يحزى الصالحين

خاتمة

حينما تحدثنا عن حياة الشبل تحدثنا عن علمه، والجهد الكبير الذي
بذله في سبيل تحصيل العلم، حتى لقد قال عنه صاحب الشذرات
«كان الشبل فقيهاً عالمًا كتب الحديث الكثير».

ويقول هو عن نفسه:

«كتبت الحديث عشرين سنة، وحالست الفقهاء عشرين سنة»
ووصل الأمر بالشبل إلى أن أصبح صاحب حلقة يدرس فيها، ويلتف
فيها من حوله العلماء والفقهاء:

وموضوع العلم عند الصوفية أمر يهمه كثير من الكاتبيين، ربما كان
السِر في ذلك أن الأمر أظهر من أن يعقد له الإنسان فصلاً أو يؤلف فيه
كتاباً، ولكن النتيجة لذلك كانت أن بعض الناس ظن أن الصوفية ليست
لهم صلة وثيقة بالعلم، وفتنلوا الأمر على غرار ما يرونه الآن من بعض من
ينتسبون إلى التصوف زوراً، وليس لهم نصيب من العلم..

و نحن إذا كنا قد كتبنا من قبل عن وجوب تفقه الصوفية، خصوصاً من
يحتل منهم مركز الإرشاد - في العلم - فإننا الآن أيضاً نطالب بهذا، ونحن

يكتب عن عالم من كبار العلماء.

وما من شك في أنه لا يتأتى أن يكون الإنسان صوفياً ما لم يأخذ من العلم نصيباً يمكنه من تصحيح دينه؛ عقيدة وعبادة وسلوكاً.

أما كبار الصوفية فهم كبار العلماء.

ونحب أن نذكر من ذلك أمثلة لما يمارون في انتساب الصوفية للعلم، وتعمقهم فيه، وقبل أن نبدأ في ذكر هذه النماذج نقول:

إن جميع من ذكرهم صاحب حلية الأولياء من الصوفية في كتابه البالغ أكثر من أربعة آلاف صحيفة، كلهم من العلماء، وما ذكره صاحب كتاب الكواكب الدرية من الصوفية الذين يعدون بالملأ، كلهم من العلماء.

والواقع أن العلم في الدائرة الصوفية هو العلم بمعناه الإسلامي، أي العلم بالطبيعة، والعلم بما وراء الطبيعة؛ إنه العلم بالأخلاق وبالفضيلة، وهو العلم بالنواميس الإلهية السارية في الكون التي يكشفها علم التشريع، أو علم الطبيعة، أو علم الفلك، أو غير ذلك.

وإذا كانت الحقيقة تسفر عن قناعها بالأمثلة، فإننا نبدأ عن قاله

القشيري:

«سب هذه الطائفة وإمامهم».

إبه الجيد:

لقد كان فقيهاً يفتي في حلقة أستاذه وبحضرته وهو ابن عشرين سنة، وتأمل ما قاله القدماء عن درسه.

نقد كان الكتبة (الأدباء) يحضرون مجلسه لألفاظه.

وكان الفقهاء يحضرون مجلسه لتقريره.

والفلاسفة يحضرون مجلسه لدقة نظره، ومعانيه.

أما المتكلمون فكانوا يحضرون مجلسه لتحقيقه.

وكان الصوفية من قبل هؤلاء ومن بعدهم يحضرون مجلسه لإشارته وحققته.

ولقد حضر أبو الحسن علي بن إبراهيم الحداد يوماً مجلس القاضي أبي العباس بن شريح، فسمعه يتكلم في الفروع والأصول، (أي في علم الفقه، وفي علم التوحيد)، بكلام حسن.

ويقول أبو الحسن: فصحت منه، فلما رأى إعجابه قال: أتدري من أين

هذا؟

قلت: يقول به القاضي.

فقال: هذا ببركة محاسبة أبي القاسم الجنيد.

أما علم الجنيد نفسه، فقد جاهد في سبيل تحصيله السنين الطوال عن طريق الدرس والتحصيل، وكان هذا الطريق الجانب الكسبي من علمه.

أما الجانب الوهبي، فإنه سئل من أين استفدت هذا العلم؟ فقال: من جلوسى بين يدى الله ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة.

وأما إلى درجة في داره.

وقد حفظ الجنيد القرآن، وفهمه، ودرسه، وتدبره، وقيد الحديث واستوعبه قدر الاستطاعة لفظاً ومعنى، رواية ودراسة. وذلك أنه يرى - كما يرى غيره من الصوفية - أن ذلك هو الأساس، ولا بد من إحكام الأساس.

وإحكام هذا الأساس يجعل من أحكامه فقيهاً، ويجعله محدثاً، ويجعله مفسراً، ويجعله من علماء التوحيد.

ولقد أحكم الجنيد هذا الأساس قدر الاستطاعة:

أحكامه تعبدًا، وأحكامه استنارة، وأحكامه لأنه صوفي، وقال فيها رواه القشيري:

«من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الشأن، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة».

ولقد كرر الجنيد، رضى الله عنه، هذا المعنى حتى ثبت في أذهان الصوفية، يروى الروذباري عن الجنيد أنه قال:

«مذهبنا مقيد بأصول الكتاب والسنة».

ويروى القشيري أيضاً عن الجنيد أنه قال:

«علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم».

ويكفى أن يتصفح الإنسان رسائل الجنيد، رضى الله عنه، ليشعر أنه إمام عالم من أئمة علماء المسلمين.

والجنيد، رضى الله عنه، مثال للصوفي على ما ينبغي أن يكون، ولم يكن الجنيد بدعاً في عالم الصوفية، فأستاذه الخارث بن أسد المحاسبي لم يكن في زمانه نظير له في علمه..

ومؤلفاته كثيرة متنوعة، وكلها في مستوى سام، حتى لقد كانت من المصادر الرئيسية التي أفادت الإمام الغزالي وأثرت فيه.

وكتاب الرعاية للمحاسبي، كتاب أدب، عالم حجة، وكتابه: فهم القرآن - بحسب ما وصلنا منه من نصوص - كتاب الباحث الدقيق، الذى يتخذ القرآن والسنة أساساً، وينطلق منها إلى إخلاء جو العقائد، ودأ على المبتدعة والمنحرفين.

ولقد حاول ذو النون المصري من قبل الجنيد، أن يكتشف من معميات الكون، ماخفى على الكثيرين:

لقد كانت له جولات في عالم الكيمياء، وأسرار الطبيعة، ولقد حاول أن يكتشف أسرار علم قدماء المصريين، وأن يقرأ كتاباتهم، ويتفهم لغتهم، لقد كان يحب اكتناء الغامض، ويحاول أن يزيل القناع عن المحجوب، فضلاً

ولا صوفيا إلا وأحرص على المتور على سر صوفيته.
ولا معيبدًا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته،
ولا زنديقًا مطلقًا إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جبرائه في تعطيله
وزندقته.

وقد كان النعاشي إلى مارك حقائق الأمور دأبى ودينى، من أول أمرى،
وربعان عمرى، غريزة وفطرة من الله، وضعتا في جيلقى لا باختيارى
وحيلقى، حتى انسلت عن رابطة التقليد، وانكرت على العقائد الموروثة،
على قرب عهد من الصبا، أهد.

أما الذى طرح مختلف العلوم، واملك ناصية المعرفة على مختلف
فروعها، ووصل فيها على القمة؛ لم يجاره في ذلك فيلسوف من فلاسفة
الشرق، ولم يجاره في ذلك فيلسوف من فلاسفة الغرب فإياه:

الشيخ الأكبر، سيدنا محيي الدين.

لقد طوع المعرفة للفكر، وطوعها للعلم، وبلغ فيها القمة، وبحث سعى
الشيخ الأكبر، ولقد كان في فتوحاته مفسرًا خيرًا من كثير من المفسرين،
وفقيها خيرًا من كثير من الفقهاء، وشارحًا للحديث خيرًا من كثير من
شراحه، وفتوحاته كنز من المعرفة لا ينقده، ومعين من العلم لا ينقصه، إنه
رشقة من بहार رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تتسم دائمًا بنفزة منبها.

عن شعاره الدائم، وهو القرآن الكريم، وستة رسول رب العالمين.
وهل أذاك نبأ الإمام القشيري، وأنه فسر القرآن، كما يفسره هذا وذاك
من علماء اللغة وعلماء أسباب النزول، وعلماء النحو والبلاغة. ولم يكن
أقل من أى منهم في علمهم وفهمهم.

وأنه لم يكف بذلك، وإنما ألف في تفسير القرآن: لطائف الإشارات،
فكان إلهامًا من الإلهامات، وكان نورًا من الأنوار، ولم يذكر فيه كل
الإشارات، وإنما ذكر لطائفها.

ولقد خاض الإمام الغزالي ببحار العلم، وانغمس فيها، وعبث عن ذلك
بقوله:

«ولم أزل في عتقوان شيان - منذ راقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين
إلى الآن، وقد أتاك السن على الخمسين - اتنعم بجه هذا البحر العميق،
وأخوض غمرته خوض المصور، لا خوض الجبلين المندور، أتوغل في كل
مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأقتحم كل ورطة، وأتقصص عن عقيدة
كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين حق وبطل،
ومتسن، ومبدع، لا أغاور باطنها إلا وأحب أن أطلع على بطلانها.

ولا ظاهريًا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته.
ولا فلسفيًا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته.
ولا متكلمًا إلا وأجهد في الإطلاع على غايته كلاله، وبجاليته.

والمصوفية في الجانب العلمى لا يكتفون بالجانب الكسبى: أى جانب التعليم من الكتب، وعلى أساتذة الكتب، ولكنهم قرأوا في كتاب الله تعالى: ﴿وعلّمناه من لدنا علماً﴾.

فتعلقت آمالهم بهذا العلم الآتى مباشرة من الله، وتطلعت آمانيهم إلى هذا العلم الذى هو من عند الله، واتخذوا الطريق إليه والطريق إليه رسمه الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز وعلى لسان رسوله الكريم، إنه الجهاد في سبيل الله:

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾

وهو العمل بما علموا:

«من عمل بما علم، ورثه الله علم ما لم يعلم».

وهو تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى، ومن حقق العبودية لله كان الله سمعه وبصره:

«كسب سمعه الذى يسمح به، وبصره الذى يبصر به».

وشعار الصوفية على وجه العموم فيما يتعلق بالعلم، هو شعار أستاذهم وقُدوتهم وحبيبهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الذى كان شعاره: ﴿رب زدنى علماً﴾.

وإذا كان أهل الظاهر قد فرحوا بعلمهم الظاهر، واكتفوا به، فإن

الصوفية قد حصلوا هذا العلم ولكنهم لم يكتفوا به، لقد شاركوا علماء الظاهر في علمهم، ولكن علماء الظاهر لم يشاركوهم إلهاماتهم وإشراقاتهم: هل نذكر في هذا المجال الإمام الغزالي في علمه الظاهر، وفي علمه الباطن؟

هل نذكر القطب الكبير أبا الحسن الشاذلى، أو القطب الكبير أحمد الرفاعى، أو القطب الكبير عبد القادر الجيلانى في علمهم الظاهر، وفي علمهم الباطن؟

والشعرافى الذى ساهم تقريباً في جميع فروع المعرفة الدينية، أنساه في هذا المجال؟ إن التصوف والعلم يؤلفان وحدة متحدة منذ أن نشأ التصوف. وفي ختام هذا الموضوع ننقل قول صاحب اللمع:

ثم إن طبقات الصوفية أيضاً اتفقوا مع الفقهاء، وأصحاب الحديث في معتقداتهم، وقبلوا علومهم، ولم يخالفوهم في معانيهم ورسومهم، إذا كان ذلك مجانباً للبدع واتباع الهوى، ومنوطاً بالأسوة والاقتداء، وشاركوهم بالقبول والموافقة في جميع علومهم.

ومن لم يبلغ من الصوفية مراتب الفقهاء وأصحاب الحديث في الدراية والفهم، ولم يحط بما أحاطوا به علماً، فإنهم راجعون إليهم في الوقت الذى يشكل عليهم حكم من الأحكام الشرعية، أوحد من حدود الدين، فإذا اجتمعوا فهم في مجلتهم فيها اجتمعوا عليه، فإذا اختلفوا فاستحب

الصوفية في مذهبهم الأخذ بالأحسن والأولى والأتم احتياطاً للدين،
وتعظيماً لما أمر الله به عباده، واجتناباً لما نهاهم الله عنه.

وليس من مذهبهم النزول على الرخص، وطلب التأويلات، والميل إلى
الترفه والسعات، وركوب الشبهات، لأن ذلك تهاون بالدين، وتخلف عن
الاحتياط، وإنما مذهبهم التمسك بالأولى والأتم في أمر الدين، فهذا الذي
عرفنا من مذاهب الصوفية ورسومهم في استعمال العلوم الطاهرة، المبذولة
والمندولة بين طبقات الفقهاء وأصحاب الحديث.

ثم إنهم من بعد ذلك ارتقوا إلى درجات عالية، وتعلقوا بأحوال شريفة،
ومنازل رفيعة، من أنواع العبادات، وحقائق الطاعات، والأخلاق الجميلة،
ولهم في معاني ذلك تخصيص لغيرهم من العلماء والفقهاء وأصحاب الحديث.

فهرس الكتاب

الصفحة	
٥	من دعاء الشبلى
٧	مقدمة
١١	الفصل الأول: حياته
٣٥	الفصل الثاني: الشبلى وتعريف بالتصوف
٥٣	الفصل الثالث: الطريق الصوفي عند الشبلى
٩١	الفصل الرابع: التصوف والشرعية عند الشبلى
٩٧	الفصل الخامس: متناثرات من الحكم والمواعظ والطرائف
١٠٩	الفصل السادس: تقدير الشبلى
١١٣	الفصل السابع: وفاته
١١٧	خاتمة

AL-MUSTAFA.COM